

الدكتور شوقي أبو خليل

فَتْحُ صَقْلِيَّةٍ

بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

دار الفکر
بيروت - سورية

دار الفکر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣١، ١٠٥، ٣٠٠

الرقم الاصطلاحي للمجلد: ٣١، ١٠٤٤

الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-500-6

الرقم الدولي للمجلد: ISBN: 1-57547-310-3

الرقم الموضوعي: ٩٣٠

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

السلسلة: الفاروق الكبير في تاريخ الإسلام

المصنف: فتح مغلبي

المؤلف: د. شوقي أبو خليل

المصنف التصويري: تاريخ الفكر - دمشق

التصنيف الطباعي: الطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٩٦ ص

قياس الصفحة: ٢٠×٢٦ سم

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع

والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الرقمي

والسموع والحاسوب وغيرها من الحقوق إلا بإذن

خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب.: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقيات: فكر

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢٣١١٦٦

<http://www.fikr.com/>

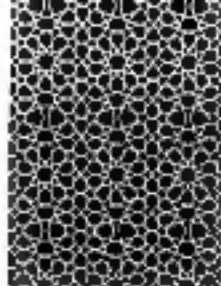
E-mail: info@fikr.com



إعادة

1418 هـ - 1998 م

ط 1 : 1980 م



سنة الفجر الحادي عشر
١٤٤١ هـ

فتح صقلية

بقراءة الفقيه الجليلي الشيخ الفاضل

كمين باب الشيزري: عمر رونسفال؛ فتح صقلية: بقيادة أسد بن الفرات/
شوقي أبو خليل. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨. - ٩٤ ص ٢٠٤ سم. -
(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٨٠.
١- ٩٥٦, ٠٧ خ ل ي ك ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الثاني ٤- أبو
خليل ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

ع- ١٩٩٨/٢/٣٣١

تَصْدِير

✱ إن انتصار المسلمين على الروم في
اليرموك وذات الصواري ، أنساهم روعة انتصار
الاسكندر على داريوس ، وانتصار روما على
هانيبال ، وانتصار الامبراطور أورليانوس على
زنوبيا .

كانت الفتوحات الاسلامية في صدر الاسلام ، في عهد
الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله
عنهما ، ايذاناً بظهور المجد الاسلامي البحري ، والسيادة الاسلامية
في البحر المتوسط ، وبخاصة بعد سيطرة المسلمين على سواحل
الشام ومصر ، وكان هذا ايذاناً أيضاً — كنتيجة طبيعية — بزوال
السيادة الرومانية عن المتوسط .

وفجر السيادة الاسلامية في البحر مدين بشكل مباشر
للخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد أذن
لواليه في الشام معاوية بن أبي سفيان بغزو الروم بحراً ، شريطة
أن تكون الخدمة البحرية تطوعاً ، فاستعمل على البحر عبد الله بن
قيس فغزا قبرص والجزر اليونانية بحملات خرجت من شواطئ
الشام ، وقدر المؤرخون الأسطول الذي هاجم قبرص أيام عثمان
بألف وتسعمائة سفينة .

كان عهد عثمان رضي الله عنه بداية بناء وظهور الأسطول الإسلامي ، وبالتالي بداية السيادة الإسلامية على البحر المتوسط ، ففي عهده اتسعت الخلافة الإسلامية ، وشملت أمما بحرية ، فأضحت مضطرة الى مواجهات بحرية ، جعلتها بحاجة ماسة الى أسطول يفتح الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط ، لضمان الدفاع عن سواحل الخلافة .

وبهذا يمكننا التأكيد على أن الدافع الرئيسي لبناء الأسطول الإسلامي كان حاجة المسلمين للدفاع عن فتوحاتهم التي بذلوا في سبيلها أرواحهم حتى ملكوا البر ، ونظروا الى البحر فرأوا أنه مازال في قبضة أعدائهم الروم البيزنطيين ، ولا منافس لهم فيه ، خصوصاً عندما أظهروا قوتهم البحرية أيام الامبراطور «كونستانس الثاني» ابن هرقل ، الذي أرسل سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م ثلاثمائة سفينة رومية ، عليها آلاف الجند لاسترداد مصر .

وفي سنة ٣٢ هـ كانت معركة « ذات الصواري » ، تلك المعركة البحرية الفاصلة بين المسلمين والروم البيزنطيين التي انتهت بأول نصر بحري إسلامي ، نتيجة للتفكير السليم ، والخطّة المدروسة غير العادية ، حيث ربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض بسلاسل ثقيلة متينة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم ، كما استخدموا خطاطيف طويلة اصطادوا بها صواري السفن البيزنطية ، الأمر الذي أنهى المعركة بكارثة على الروم البيزنطيين ، كما فصلنا في الجزء الرابع من هذه السلسلة .

واطمأن المسلمون الى قوتهم البحرية بعد ذات الصواري ،

وادرکوا امکان تفوقهم البحري في المتوسط بعد أن انتصروا على
أقوى أسطول كان فيه .

اطمأن المسلمون الى قوتهم البحرية ، فأولوها عنايتهم ، وكان
لمعاوية بن أبي سفيان — سواء أكان في ولايته ، أم في خلافته في
الشام — الفضل الأول في ارتياد المسلمين البحر ، وفي تنظيم
البحرية الاسلامية .

كما قامت في الأندلس ، في الحوض الغربي للمتوسط ،
بحرية اسلامية ، انتظمت واكتملت زمن الناصر عبد الرحمن الثالث
٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

ومن الملاحظ أن دولة الاسلام جعلت لرجال البحرية أجوراً
عالية ، ومكافآت كبيرة ، ومنزلة رفيعة ، حتى أن بني أمية في
الأندلس ، جعلوا أمير البحر أحد الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم
الدولة ، وأسموه « قسيم الخليفة » في السلطة ، فالخليفة يحكم
البر ، وذلك يحكم البحر .

واقتنع الروم بعد « ذات الصواري » أن حملاتهم البحرية
والبرية ، لن ترجع اليهم مصر أو الشام ، وأن كل مجهود يبذلونه
فهو فاشل ضائع ، وكل المحاولات تغدو لا جدوى منها بعد بناء
الأسطول الاسلامي في عكا على سواحل الشام ، وفي جزيرة
الروضة ، والقلزم — السويس حالياً — وفي الاسكندرية على
سواحل مصر .

إن انتصار المسلمين في اليرموك - وفي ذات الصواري -
اليرموك البحرية - أنسى الروم روعة انتصار الاسكندر على
داريوس ، وانتصار روما على هانيبال ، وانتصار الامبراطور
أورليانوس على زنوبيا ، وبدأ أباطرة القسطنطينية ينظمون دولتهم
على أساس الأمر الواقع ، فأخذوا بتقوية حصونهم ، وبخاصة
حول عاصمتهم ، لصد هجمات المسلمين ، الذين بدؤوا يتطلعون
الى عاصمة الروم « القسطنطينية » .

وهكذا . . . بدأت الأساطيل الاسلامية تجول في البحر
المتوسط بحرية ، وبمرور الأعوام سيطرت على شواطئه الشرقية في
الشام ، ثم على شواطئه الجنوبية في مصر والمغرب العربي ، ثم فتح
المسلمون الأندلس ، فوصلوا الى جنوب فرنسا ، فسيطروا بذلك
على معظم أرجاء شمال البحر المتوسط ، وتحوّل بذلك الى بحيرة
اسلامية ، بعد أن كان الى عهد « جستنيان » بحيرة يزنطية رومية .

وبسيادة المسلمين على المتوسط وجزائره ، أضحت لهم قواعد
بحرية ممتازة في عكا والاسكندرية ، وكريت وتونس وصقلية ،
وبارة وتارنت بجنوبي ايطالية ، وعند ساحل نابولي في جزيرة
بوتنزا ، وفي جنوبي فرنسا على ساحل بروفانس في فراكسنييتيوم ،
وكذلك في جزيرة كامرج وفي مدينة ماجلون غربي نهر الرون ،
بالإضافة الى جزر البليار ، وقواعد سواحل اسبانية .

وتنوعت قطع الأسطول الاسلامي حجماً وغاية ، فكان منها :
الشواني المزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وفيها مخازن

القمح وصهاريج المياه ، تسير بقوة مائة وثلاثة وأربعين مجدافاً ،
والحراريق التي حملت النار الاغريقية ، والبطس التي حوت عدة
طبقات ولها أكثر من أربعين شراعاً ، وتستخدم في حمل الأزواد
والذخيرة والرجال حتى ١٥٠٠ مجاهد • والبركوس والغراب
والمسطحات والطرائد والشلنديات والقراقير والطرادات والدرمونة
والفلايك ...

وجهزت الأساطيل الاسلامية بالنار الاغريقية التي كانت
سلاحاً سرياً أخفته يزنطة ، وكان سبباً في فشل الاسطول الاسلامي
الذي حاصر القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك •

قال ابن خلدون : « وقد كان المسلمون لعهد الدولة
الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت
صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبيل بأساطيلهم
بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم
المقامات المعلومه من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المتقطعة
عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة وسردانية
وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص • وسائر ممالك
الروم والافرنج » •

واعترف المؤرخون الأوربيون بعظمة البحرية
الاسلامية في البحر المتوسط ، فقد ذكر « آدم متر »
في كتابه « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » :
« لم يكن لأوربة سلطان على البحر المتوسط خلال القرن العاشر

الميلادي ، فقد كان بحراً إسلامياً ، وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود المسلمين » .

حتى أن الأسماء البحرية العربية ، انتقلت الى اللغات الأوروبية بعد الفتح الاسلامي لجزر البحر المتوسط . وقد عدتها زيفريد هونكة في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، وأوردها « فون كريمر » المؤرخ الألماني في كتابه « الشرق في ظل الخلفاء » ، منها : Cable المأخوذة من « جبل » العربي ، وكلمة Arsenal أو Darsonal المأخوذة من لفظ « دار الصناعة » بالعربية ، وكلمة Admiral المأخوذة من « أمير البحر » ، اللفظ والتعبير العربي ... وعن المسلمين أخذ الأوروبيون أدوات ووسائل الملاحة المتقدمة .

لقد بقي البحر المتوسط بحيرة إسلامية الى حوالي منتصف القرن الحادي عشر للميلاد ، محققاً هدف الفتح فيه ، فحمت قبرص شواطئ سورية ، وحات كريت شواطئ مصر ، كما حمت صقلية شمال افريقية ، وجزر البليار الاندلس .

ولقد بدأ بالفتح الاسلامي طور جديد في تاريخ حوض المتوسط ، بل في تاريخ الانسانية كلها ، فلم يكن ظهور الاسلام على سواحل المتوسط بالحدث المؤقت ، الذي سرعان ما تمحي آثاره ، بل على العكس من ذلك ، كان انبثاق فجر الاسلام ظاهرة دائمة مستمرة ، صاحبها تبديل جوهرى في الفكر والثقافة لأغلب مواطني بلاد هذا البحر ، وفي كل صقع وصلت اليه الفتوح الاسلامية ، ولم يزل أثر ذلك التغيير يمثل الحقيقة الكبرى ، والظاهرة الجوهرية التي تميز بها هذا الجزء من العالم .

لما طبعت مذكرات كريستوفر كولومبس ، وجد العلماء
فيها وصفاً للأرض بأنها كرة ، ولكن لها شكل الكشري ، وكان
هذا أمراً مذهشاً عند الأوربيين ، فكيف عرف كولومبس ذلك ؟
أم هي رمية رام بليل ؟!؟

ويجب كولومبس عن أسئلة المتسائلين ، بأنه عزم على
على السفر قاصداً الهند عن طريق المحيط الأطلسي بعد مطالعة
كتب ابن رشد . وهذا الكلام ذكره « درابر » في كتابه « تجديد
العلوم في الجنوب » وأي جنوب هو ؟ إنه جنوب فرنسا
والأندلس ، مركز الاشباع الفكري والحضاري لأوربة كلها .
لقد كانت العلوم العربية الاسلامية لقمة سائغة لكولومبس بالذات ،
ولأمريكوفيسبوشي وماجلان من بعده . ولا شك أن هذا من
نتائج الفتح الاسلامي لحوض المتوسط ، والذي تميز بالسرعة
الهائلة ، والاتصارات الرائعة التي حالفته اينما اتجه ، وأهم أسباب
ذلك ، السمعة الانسانية الطيبة العطرة ، وطبيعة تعاليمه السمحة ،
والحماس الديني الذي بناه الاسلام وثبته في قلوب جنده المجاهدين
الفاحين . وهذا ما جعل سكان شواطئ المتوسط يرحبون بالفتح ،
وأصدق دليل على ذلك أن مصير بلاد شاسعة واسعة مترامية
الأطراف كانت تقرر معركة واحدة ليس غير ، فمصير بلاد الشام
تقرر في اليرموك ، ومصير مصر تقرر في معركة حصن بابلون ،
ومصير إسبانيا تقرر في معركة وادي لكّة ، ومصير العراق تقرر
في معركة واحدة في القادسية ، ومصير فارس وخراسان تقرر في
معركة نهاوند .

ونحن في الصفحات التالية من هذا الجزء ، سنرى جوانب من المجد البحري للمسلمين ، بعد عرض « لكمين باب الشيزري » أو كمين « ممر رونسقال » .

وهذا المجد البحري جزء من المجد الاسلامي ، هذا المجد الذي سجله العرب بفضل رسالة الاسلام ، وهل من دليل أسطع على قيمة الاسلام في حياة العرب من الحضارة الخالدة التي أثرت وبقيت حيثما انتشر ، وزال فتحهم الحربي العسكري كحادث وقع ، وبقي فتحهم الروحي الحضاري الانساني خالداً خلود الزمن ، وهل ابتغى الاسلام هدفاً غير هذا الفتح ؟!

فلولا الاسلام ديناً وهدياً ، والقرآن العظيم دستوراً ومنهجاً ، ورسول الله ﷺ مريباً مزكياً ، لما أصبح البحر المتوسط بحيرة « عربية » إسلامية ، ولما جالت جيوش المسلمين في جزائر البحر المتوسط فاتحة محررة ؟!

نقولها ونعي معناها حق الوعي : ما سجل التاريخ مجداً وعزاً ، ولا رفع أمة في الدنيا ، كما سجل للعرب بعد اسلامهم ، ورفع ذكرهم .

فبالاسلام ساد العرب أوطانهم بعد تحريرها . . بل سادوا العالم القديم كله ، قلبه وجناحيه ، لا سيادة سلام ، فالسلام حالة بين متخاصمين ، بل سيادة إخاء ورحمة وانسانية ومحبة ، فحيثما حلوا ، حل العلم ، ونبتت الحضارة ، وحل الازدهار ، ونمت مفاهيم العدالة والمساواة والانسانية ، لقد أورقت الأرض من تحت أرجلهم ، وقد رأينا في الجزء الخامس من هذه السلسلة دليلاً غير قابل لنقاش ، وسنرى في هذا الجزء في صقلية دليلاً آخر ، وما أكثر الدلائل ، وما أكثر تنوعها .

ونتساءل في ختام هذا التمهيد إنه إذا أراد العرب اليوم أن يفتخروا ، فمن يفتخرون ويباهون ؟ بأنفسهم وحاضرهم الممزق ؟ أم بعظام أجدادهم الذين ولد بعضهم في الحجاز ، واستشهدوا في الثغور ، وفي أصقاع سحيقة على حدود الصين ، وفي قلب فرنسة ، وعلى أسوار روما وفيينا ؟

لقد أحاطت بهم عناية الله سبحانه ، وهي الى الأبد موجودة باقية ترى من هم أهل لها ، إنها للذين ينصرون الله فيعتنون بأوامره سبحانه وتعالى فهما وتطبيقاً وتعليماً ، فهو القائل عز وجل : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، صدق الله العظيم .

★ ★ ★

★ سنرى في هذا الجزء كمين باب الشَّيْزُورِي « ممر روئسِقَال » ، ثم لمحات سريعة عن فتح المسلمين لجزائر البحر المتوسط ، يتبعها تفصيل لفتح صِقْلِيَّة ، ووجيز للثقافة الاسلامية التي فرضت نفسها على صقلية أولاً ، وعلى أوربة كلها ثانياً .
فعلى بركة الله نبداً .

★ ★ ★

شوقي أبو خليل

ص ٠ ب : ٦٢٢٢

دمشق - سورية

دمشق : ٥ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ .

الموافق ٤ آذار ١٩٧٩ م .

كَمِين بَاب الشَّيْزِي

«مَمَّرُونَسْطَال»

الفرنجة قُيلَ بِأَبِ الشَّيْزِيِّ

✱ نظر شارلمان الى احداث الاندلس
بعين التوجس والحذر ، ورأى في قيام الامارة
الاموية خطرا دينيا وسياسيا يجب التحوط منه
والعمل على درئه ما سنحت الفرص •

عمل ملوك الفرنجة منذ أيام شارل مارتل — وبشكل
جدي — على وضع حدٍّ نهائي لعبور المسلمين جبال البرانس ،
فقام حاجب القصر الفرنجي « بين » بن شارل مارتل بانتزاع
العرش لنفسه ، فكان أول ملوك الأسرة الكارولنجية ، واستطاع
الاستيلاء على القواعد الاسلامية في سبتمانيا ، وأجلى المسلمين
عن أراضي غاليا ، وردَّهم الى جنوب البرانس ، وكان ثغر أربونة
آخر معقل اسلامي استولى عليه « بين » عام ٧٦٠ م ، و انتهت
بذلك سيادة المسلمين في غاليا •

وفي عام ٧٦٨ م توفي « بين » وورثه ولده شارلمان « أو
كارل الأكبر » ، وغدا يسيطر على مملكة الفرنجة كلها ، من ضفاف
نهر الراين ، الى جبال البرانس ، ويعد أكبر ملوك النصرانية في
عصره ، وقد غدا فيما بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة •

وعرف شارلمان بصفتين اثنتين :

فهو ذو مقدرة حربية ممتازة •

كما أنه حامي النصرانية الأكبر ، فهو الذي شهر الحرب على القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء نهر الرين ، وأرغمها على اعتناق النصرانية تباعاً ، فقد حارب السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة ، كلها عنف وقتال ، حتى أخضعهم وحولهم قسراً الى الديانة المسيحية ، كما تطلب ثمانى حملات حسوماً متتابعة حتى هدم الآفارين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المقدسة إنها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة الى شاهق الفيض والوفرة^(١) •

وأنفذ شارلمان بعثات تبشيرية مسلحة لنشر المسيحية بين السكسونيين ، قاومها هؤلاء بقيادة زعيمهم « فيدوكت »^(٢) •

كما رغب شارلمان في التدخل في اسبانية بدافع الحماس الديني لحماية المسيحيين فيها ، وبدافع الحلم الامبراطوري الذي يداعبه في تكوين امبراطورية واسعة ، تعيد ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعاً •

وفي هذه الأثناء ، وخلال هذه الأحداث في أوربة ، انهارت الخلافة الأموية في الشرق عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، واستطاع عبد

(١) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، تأليف : هـ.أ.ل. فشر ، طبعة دار المعارف بمصر ، صفحة : ٩١ •

(٢) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، صفحة : ٩٢ •

الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك^(١) ان يصل الى شمال افريقية ، ومنها الى الأندلس ، بعد أن مهد له أنصاره ، وموالي أسرته ، سبيل العبور ، واستطاع أن يفوز في « معركة المسارة » ، قرب قرطبة على خصومه ومناوئيه ، وذلك سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي واجهها عبد الرحمن الداخل ، والمعارك التي خاضها مع الخارجين عليه في الأندلس ، استطاع اخماد الثورات ، ووطد أركان الدولة بهمة عالية لا تعرف الكلل ، حتى وصفه ابن حيان القرطبي بقوله : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الأمور الى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغاً مفوهاً ، شاعراً محسناً ، سمحاً سخياً ، طلق اللسان ، وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره ، وكان قد أعطي هبة من وليه وعدوه ، وكان يحضر الجنائز ، ويصلي عليها ، ويصلي بالناس اذا كان حاضراً الجمع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم^(٢) » ..

(١) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم « أبو المطرف » ، لقب « بالداخل » ، لانه أول من دخل الاندلس من بني أمية حاكماً ، ولقبه أبو جعفر المنصور بـ « صقر قریش » لبراعته وقوته ، وتوليه الحكم في الاندلس بحزم بعد أن كان هارباً من أيدي العباسيين .

(٢) راجع نفح الطيب : ج : ١ ، ص : ٣٠٦ وما بعدها .

بهذه الصفات ثبت صقر قریش أركان الامارة الأموية في
الأندلس ، وأعاد إليها وحدتها •

نظر شارلمان إلى أحداث الأندلس بعين التوجس والحذر ،
ورأى في قيام الامارة الأموية خطراً دينياً وسياسياً يجب التحفظ
منه والعمل على درئه ما سنحت الفرص ، فتذرع بحق العباسيين^(١)
في اسبانية ، وسنحت له الفرصة حين هرب من الأندلس بعض
الموتورين ، الذين وصفوا بما يلي : « صغرت نفوسهم ، فأصبحوا
لا يهمهم إلا تحقيق مصلحتهم الشخصية^(٢) » • ورأى شارلمان
ان في حوادث الحرب الأهلية التي قام بها بعض الانفصاليين عن
السلطة المركزية في قرطبة ، فرصة طيبة للتدخل والعمل ، رأى
فرصته المنشودة سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م عندما ثار سليمان بن
يغظان الكلبي والي برشلونة وجيراندا ، والحسين بن يحيى
الأنصاري والي سرقسطة ، فحاول استثمارها •

* * *

(١) عاصر شارلمان ستة من خلفاء بني العباس هم : المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ
/ ٧٥٤ - ٧٧٥ م) والمهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) والهادي (١٦٩ -
١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م) والرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، والأمين
(١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٩ - ٨١٣ م) وأوائل عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ /
٨١٣ - ٨٣٣ م) •

(٢) القول للاستاذ المرحوم الثبت العبادي ، عن تاريخ الأندلس ، ص : ٢١٨
وما بعدها •

المتأمرون

★ « يا جذا الامارة
ولو على العجارة » •

تحالف على مواجهة صقر قريش وخلعه كل من سليمان بن
يقظان حاكم برشلونة وجيرندا والحسين بن يحيى الأنصاري
حاكم سرقسطة ، واستغلا انشغال صقر قريش في قمع الثورة
في جنوبي الاندلس ، مستغلين طبيعة شمال اسبانية الجبلية ،
وصعوبة اقتحامها •

أرسل صقر قريش جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي ،
ودعا العصاة الى الطاعة ولزوم الجماعة ، قائلاً : « لتمدن يداً الى
الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين بنانها عن رصف
المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد^(١) » •

وقاتل ثعلبة الانفصاليين قتالاً شديداً ، وفي بعض الأيام عاد
الى خيمته ، فاغتتم سليمان فرصة راحة جند ثعلبة ، فكر على
خيمته وقبض عليه ، وتفرق عسكر ثعلبة ، وهكذا فشل ثعلبة في
انهاء عصيان الثوار ، وأسر •

(١) نفع الطيب - وابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ١٢٢ •

وهكذا استفحل أمر الثورة ، مع يقين سليمان بن يقظان أن هذا النصر مؤقت ، لما يعلمه من عزم صقر قریش وبأسه وعزمه ، وروعة انتقامه ، فسار ابن يقظان ومعه أبو ثور صاحب وشقة ، توجّها الى بادربورن في سكسونيا سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م (١) .

وأياً كانت البواعث التي جعلت المتآمرين على اتصال بشارلمان فإن الدعوة جاءت في الوقت المناسب ، حين انتهى من اخضاع السكسون في شمال ألمانيا ، ولم يبق أمامه إلا أن يتوجه الى تحقيق أحلامه الامبراطورية .

ويمكننا القول إن غاية استدعاء شارلمان هو انفصال الثائرين عن الحكومة المركزية في قرطبة أولاً ، ومن ثم تحقيق الخطوة الأهم وهي السعي للقضاء على صقر قریش .

ويمكننا التأكيد أن تلبية شارلمان لطلب الثائرين لم يكن حياً لهم ، بل كان هدفه الحاق اسبانية المسلمة بالامبراطورية الكارولنجية ، وريثة الأسرة الميروفنجية .

ويضاف الى المتآمرين أبو الأسود بن يوسف الفهري ، فقد خرج على صقر قریش ، ولكنه فشل في ثورته ، إذ تمكن صقر قریش من القبض عليه وسجنه (٢) ، لكن أبا الأسود فر من سجنه بعد أن أصابه العمى .

(١) والمعروف عن سليمان بن يقظان - ويسمى أيضاً في بعض الروايات بابن الاعرابي أو العربي - أنه حالف من قبل (يمين) القصير أبا شارلمان .

(٢) وكان صقر قریش قد قضى على أبيه يوسف الفهري والي الاندلس من قبل .

كان لقاء المتآمرين وشارلمان في ربيع عام ٧٧٧ م في بلاطه في مدينة بادربورن شمال غربي ألمانيا « أي في سكسونيا »^(١) ، بعد عودته من حروبه المظفرة مع السكسونيين ، الذين عمل بجذ على تنظيم تنصيرهم •

وحرص سليمان شارلمان على غزو الاندلس ، وعرض عليه محالفته ، وتعهد بأن يسلمه بعض المدن ، كمدينة سرقسطة وبرشلونة • وكانت الخطة التي دبرها شارلمان مع المتآمرين هي أن يعبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري^(٢) الى افريقية ، حيث يعد جيشاً ويعود به لينزل في مقاطعة تدمير ، ويقوم سليمان بن يقطان أمير برشلونة بتمهيد الطريق أمام جيوش الفرنجة الى سرقسطة •

ولبي شارلمان ملك الفرنجة دعوة الثوار الخارجين على سيادة صقر قریش ، ورمى بذلك الى تحطيم سيادة إمارة قرطبة ، وبالتالي هدف شارلمان الى تحطيم اسبانية المسلمة باذكاء روح التفرق فيها ، أما الثوار فكان أملهم الاستقلال بما في أيديهم حينئذ ، وبما سيغنمونه بعد استنجادهم بشارلمان ، قابلين حماية ملك الفرنجة •

وهكذا •• بينما كانت دولة الفرنجة تنعم بجمع كلمتها ، وتوطد دعائمها وباتتصاراتها على القبائل السكسونية فيما وراء

(١) وفي « تاريخ غزوات العرب » لارسلان ، كان اللقاء في وستفاليا Westphalie ، التي هي مقاطعة بروسية ، ألمانيا حالياً • راجع ، ص : ١٢٠ من الكتاب المذكور •

(٢) عرف عبد الرحمن بن حبيب الفهري بـ « الصقلي » وذلك لطوله وشقاره •

الرين ، كانت دولة المسلمين في الأندلس مشغولة بقمع الثورة هنا وهناك ، وروح الخلاف يمزقها ، ومصيرها يهتز بيد الأقدار (١) .

وسارت المؤامرة في طريقها المرسوم ، غير أن تحديد الوقت في ذلك الزمان ، لم يكن من الدقة بحيث توجه الضربة في وقتها المحدد المقدر ، ويرجع ذلك الى صعوبة المواصلات ، وبطء الاتصال (٢) .

فقد عاد عبد الرحمن بن حبيب الفهري الى الأندلس بالجيش الذي جمعه من افريقية ، ونزل في تدمير ، فنهض اليه صقر قریش وقضى عليه ، ولم يستطع أحد من المتآمرين أن ينجده ، معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يبرحوا أماكنهم حتى تصل جيوش شارلمان .



(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » للاستاذ محمد عبد الله عنان ،

ط : ٤ ، صفحة : ٧٣ وما بعدها .

(٢) « المسلمون في أوربة » ، صفحة : ١٢٩ .

اسبانيا المسلمة

شارلمان

✱ تذرع شارلمان بعق العباسيين في اسبانيا ، وسنحت له الفرصة حين لجأ اليه ابن يقظان .

استطاع شارلمان بحلفه الجديد مع المتآمرين أن يأخذ مظهر حماية النصرانية من خطر الوثنية المتدفق من المشرق على يد القبائل السكسونية وزعيمها القوي « فيدوكت » ، وحماية النصرانية من وثبات الاسلام المتدفق من الجنوب . ولقد أراد رد المسلمين الى ما وراء البرانس جنوباً ، والسعي لمحاربة الاسلام في اسبانية ، ولو في مقاطعاتها الشمالية على الأقل ، لتكون معقلاً بيد الفرنجة لدرء فورات الاسلام ووثباته .

ولهذا فقد جهز شارلمان جيشاً ضخماً ، قصد به مهاجمة قرطبة ذاتها ، للسيطرة على نصف اسبانية الشمالي على الاقل ، فأرسل الى البابا « هادريان » يعلمه بأمر هذه الحملة ، فوعده باقامة الصلوات لكي يعود ظافراً الى مملكته^(١) .

وفي مطلع ربيع سنة ٧٧٨ م حشد قواته المؤلفة من فرنجة

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص : ٧٤ .

نوستريا ، ومن الجرمان واللوبنارد ، وجنود بريتانيا واكويتن •
وتقدم جيش الفرنجة إلى مملكة نافار المسيحية^(١) ،
وعاصمتها « بنبلونة » ، وهي كغيرها من القبائل والمدن المسيحية
المنتشرة في تلك المناطق النائية من شمال اسبانية ، لم تقدم المساعدة
المنتظرة لشارلمان ، ونفرت من أن يتحكم فيها الفرنجة ، لذلك
اضطر شارلمان الى حصار العاصمة « بنبلونة » ولم يفتحها إلا بعد
قتال شهرين^(٢) ، ثم قسم جيشه الى قسمين ، توجه بهما الى
اسبانية فعبر أحدهما جبال البرانس من الناحية الشرقية ، وعبرها
القسم الثاني بقيادة شارلمان نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق
الروماني القديم ، فوق آكام « جان دي لا بور » الشاهقة التي
تشرف على مفاوز رونسقال الوعرة ، على أن يلتقي الجيشان على
ضفاف نهر الإيرو أمام سرقسطة ، حيث يلتقي شارلمان بحلفائه
المتآمرين •

ومما يذكر أن سليمان بن يقظان « ابن الأعرابي » ، كان منذ
مقدم شارلمان الى بنبلونة يتردد اليها لمفاوضته ، ووفقاً لتعهداته
فقد سلمه الرهائن وفي مقدمتها ثعلبة بن عبيد الجذامي قائد
صقر قریش الأسير •

سار شارلمان ومعه سليمان الى سرقسطة^(٣) ، ليلتقي بجيشه

(١) تسمى مملكة نافار أيضا : « بلاد البشكنس » •

(٢) غزوات العرب ، ص : ١٢١ ، والحلل السندسية ، ج : ٢ ، ص :

١٣١ - ١٣٢ •

(٣) الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ، ص : ٥ •

الثاني ، وليلتقي هناك بحلفائه المتآمرين ، ويستولي على المدينة الكبرى •

ولكن الحوادث كانت قد تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين المتآمرين ، فالحسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة ، وحليف سليمان منذ البداية ، ومؤيده في مشروعه لاستدعاء الفرنجة ، كان قد وافق على الحلف الذي عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهد التي قطعها له ، ولكنه مالبث أن نقم على حليفه سليمان بن يقظان ، واعتصم داخل سرقسطة • فلم هذا التغير المفاجيء في موقف الحسين بن يحيى ؟

في رأينا حصل هذا التغير المفاجيء نتيجة لما يلي :

١ - موقف الضدارة والزعامة الذي استأثر به سليمان تجاه الفرنجة مما أثار الغيرة والحسد في نفس الحسين بن يحيى •

٢ - لعل الحسين بن يحيى قد خشي عاقبة التورط في حلف مع الفرنجة أعداء الاسلام ، فعدل عن موقفه من سليمان بن يقظان وشارلمان في آخر لحظة •

٣ - لقد كان هدف المتآمرين أنفسهم أن يساعدوا شارلمان على الاستقلال بالولايات الشمالية في اسبانية المسلمة ، ولعلمهم لمسوا منه نواياه في استغلال روح الخلاف التي كانت تمزق المسلمين في الأندلس ، وأن غايته اسقاط حكومة قرطبة الأموية متذرعاً بحق العباسيين في اسبانية ، وكأنه الوصي المسؤول عن احقاق الحق في الأندلس !

٤ - لم تؤد خيانة سليمان الى ما يصبو إليه الحسين بن يحيى ، إذ كان الحسين بن يحيى يصارع منافساً على زعامة الفئة المناصرة للعباسيين في الأندلس .

٥ - ولم يستطع الحسين بن يحيى - ولا سليمان بن يقظان - أن يتغلبا على نفور المسلمين من قبول دخول ملك الفرنجة شارلمان مدينتهم ، فخشي من ثورة داخل الأسوار .

وهكذا . . فوجيء شارلمان في سرقسطة بأن صاحب الأمر فيها هو الحسين بن يحيى الأنصاري ، وعلى الرغم من أنه من الخارجين على صقر قریش ، غير أنه اعتصم داخل المدينة وتحصن فيها .

« فلما أشرف شارلمان ومعه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينة المحصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، ولم يستطع سليمان أن يفعل شيئاً لاقتناع الحسين بفتح أبواب المدينة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها فقد دافع عنها الحسين بن يحيى دفاع الأبطال ، وردت المدينة المحاصرة كل هجماته بشدة » (١) .

وعجز سليمان بن يقظان عن أن يحقق شيئاً من وعوده في تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة . فامتنعت سرقسطة على شارلمان وامتنعت المدن الأخرى أيضاً ، ولما يئس شارلمان من

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، صفحة : ٧٧ ، عن : أخبار مجموعة ،
صفحة : ١١٣ .

افتتاحها ، تركها وسار الى وشقة — وصاحبها حينئذ أبو ثور —
ثم الى برشلونة وجيروتا • ولم يشأ ملك الفرنجة أن يخوض في
تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب
من ناحية أخرى في نية سليمان وموقفه ، وبخاصة عندما ترمى الى
مسامعه أن صقر قریش خفّ لنجدة المدينة المحاصرة بشكل
خاص ، والمنطقة كلها بشكل عام، فقبض على سليمان بن يقطان^(١)،
وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة ، وكان ذلك
في شوال سنة ١٦١ هـ / تموز (يوليه) سنة ٧٧٨ م •



(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ، ص : ٥٠

المعركة

كمين باب الشيزري «ممر ونفال»

★ في ذي القعدة ١٦١ هـ ، ١٨ آب
« اغسطس » ٧٧٨ م . كانت « المأساة
الكبرى » !

فشل مشروع شارلمان في اسبانية المسلمة ، فاضطر الى الانسحاب منها يجر أذيال الخيبة وضياع الأمل ، وتحطم الأهداف .
فقد ارتد على رأس قواته مجتمعة ، ومعه أسيره (حليفه السابق) سليمان بن يقظان وعدد من الرهائن ، وسار شمالا نحو بلاد البشكنس ، وكان الناقاريون — سكان هذه البلاد — قد جمعوا فلولهم بعد سقوط عاصمتهم « بنبلونة » ، واعتزموا الدفاع عن بلادهم وعن عاصمتهم بعد أن شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين بن يحيى ضد الملك الفرنجي ، وانضم اليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة للتعاون في دفع العدو المشترك ، ولكن شارلمان هاجم « بنبلونة » بشدة ، ولم تجد بسالة الناقاريين البشكنس وحلفائهم المسلمين شيئا ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء ، واستولى شارلمان على بنبلونة مرة ثانية (١) ،

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، صفحة : ٧٧ .

ولكنه عجز عن الاحتفاظ بها كنقطة ارتكاز له فيما وراء البرانس،
فهدم أسوارها وحصونها حتى لا تعود الى المقاومة ، وحتى يسهل
لجيشه طريق العود المأمون الى فرنسة .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً الى جبال البرانس ، من طريق
هضاب رونسفال المؤدية الى باب الشّيزري^(١) ، أحد مسرات
البرانس ، فما الذي حدث عندئذ ؟!



لقد سار شارلمان بعد تخريب بنبلونة متجهاً صوب البرانس
ليعبرها عائدا الى فرنسة ، وكان عبوره من الطريق نفسها التي أتى
منها من مفاوز رونسفال ، أو باب الشّيزري ، أو باب شيزروا ، في
طرف جبال البرانس الغربية ، شمال شرقي بنبلونة .

وعلى مقربة من « بنبلونة » ، في ممر من الممرات العديدة ،
التي كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرانس من الشمال
الى الجنوب ، وهي الممرات والأبواب نفسها التي كان يستعملها
العرب للعبور الى غالية ، والعودة منها . كانت المفاجأة !!

(١) ممر رونسفال : Roncevalles ، أو باب الشيزري أو باب
شيزروا ، وهذه تسمية الشريف الادريسي ، وهي مشتقة من الاسم الروماني :
Portus Ciserei

— وفي تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط
للامير شكيب أرسلان ، وادي « رونسفو » Roncevaux . راجع ص : ١٢٢ ،
طبعة البابي الحلبي بمصر .

ففي مفاوز رونشقال الوعرة ، وتجاه ممر البرانس المسمى باب الشّيزري وقعت المفاجأة الهائلة^(١) ، ذلك أن الجيش الفرنجي ماكاد يبدأ عبور الجبال حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى وفيهم سليمان بن يقظان ، باستثناء ثعلبة بن عبيد قائد صقر قريش ، الذي لبث فترة أخرى معتقلاً بفرنسة .

وتعاون البشكنس مع المسلمين في هجومهم على شارلمان ، لأنهم كانوا يتوقون الى الانتقام منه لما أوقع في بلادهم من العبث والتخريب ، ولكن الدور الرئيسي كان للمسلمين كما كانت لهم القيادة .

إن كمين رونشقال كان بتدبير صقر قريش ، فقد أمد المسلمين في تلك المناطق وجيرانهم البشكنس بالسلاح وبالرجال ، حتى قدّر عدد المسلمين بثلاثين ألف مجاهد ، من بين جند صقر قريش والمتطوعة المجاهدين .

كان الممر ضيقاً مظلماً لتكاثف الغابات في وسط الجبال ، مما ساعد على نجاح الكمين ، وتحقيق هدفه كاملاً .

وكان يقود المؤخرة ثلاثة من أبرز قادة شارلمان وهم : السنجال إجنهارد ، وأنسلم كونت مقاطعة بلاتين ، ورولاندا حاكم بريتاني^(٢) .

(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » ، صفحة : ٧٩ .

(٢) بريتاني : مقاطعة تقع شمال غرب فرنسة على الاطلسي .

وانقضت المسلمون والبشكنس بمساعدة معونات صقر قريش على المؤخرة ، وتقدر بنصف جيش شارلمان ، وأبادوها عن آخرها في ١٥ آب « أغسطس » ٧٧٨ م ، وكان بين المؤخرة ومقدمة الجيش حيث شارلمان ثمانية أميال . ولقد أدها الخطب سمي كمين رونسقال في كتب الأوربيين « المأساة الكبرى ^(١) » .

تقول إحدى الروايات اللاتينية عن تعاون المسلمين والبشكنس في هذا الهجوم :

« إن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوي الأسلحة الثقيلة ، وعدد مماثل من المشاة ، وإن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وإن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد ، وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ، ولا سيما مطروح وعيشون ولدي ابن الأعرابي (سليمان بن يقظان) ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا في حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد ، وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين العسكرية ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف ، التي ارتجت لها سائر اسبانية ^(٢) » .

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن

(١) المسلمون في أوربة . ص : ١٣٤ .

(٢) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص : ٧١ وما بعدها .

تصورها ، ذلك أن الفرنجة لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك
الشعاب الضيقة المنحدرة ، وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجي ،
وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة ، وفي مقدمتها الخزانة الملكية ،
وكذلك الرهائن وفي مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها
شر ممزق ، وهلك خلال المعركة الهائلة عدد كبير من سادة الجيش
الفرنجي وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأي عمل أو محاولة
منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة ، وكانت نكبة مروعة لبث صداها
يتردد مدى عصور بين أمم الغرب والنصرانية^(١) .

ومما يلفت النظر في حوادث هذا الكمين ، أو هذه الموقعة ،
أن شارلمان لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى أن يعجل
بالانتقام لنكبة جيشه ، ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارده تلك
الفئات التي تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس ،
وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء
بخطورة الأنباء التي وصلتته عن تحرك السكسونيين ، وهم
ألد أعداء الفرنجة وأخطرهم ، فتابع انسحابه من الممر مسرعاً ،
ليخوض معهم حرباً جديدة ، استطالت زهاء سبع سنين^(٢) .



(٢١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام « بتصرف » ، صفحة : ٨٢ .

نَتَاجُ بَابِ الشِّيزِي

★ لم يفلح شارلمان في هدم الشكيمة
العربية في اسبانية المسلمة على الرغم من
تفرق كلمتها •

وهكذا عاد شارلمان من اسبانية يجر أذيال الخيبة ، والمأساة
الكبرى • فاختتمت محاولته لغزو اسبانية المسلمة والتدخل في
شؤونها ، بنكبه ، وبالقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبغت هذه
النكبة سحابة قاتمة على مجده الحربي ردياً من الزمن ، ولو قيض
لشارلمان أن يفتتح سرقسطة ، وقواعد الثغر الأعلى لمهد له سبيل
الزحف الى الجنوب ، ولتعرضت حياة الأندلس المسلمة لخطر
محقق •

ولكن الله سبحانه وتعالى شاء أن يقضي على محاولته على
يد جيش من المسلمين المغامرين البواسل ، الذين أيدهم وأمدتهم
صقر قریش •

بيد أن هذه المحاولة لم تكن آخر محاولة من نوعها لعاهل
الفرنجة ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة

المؤلة ترقب سير الأحداث في الأندلس ، لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها ، وقد سنحت بعد ذلك أكثر من فرصة انتهزها شارلمان للتدخل في شؤون اسبانية المسلمة ، وغزو أراضيها .. ولكنها باءت كلها بالفشل .

كان لكمين رونشقال « باب الشّيزري » من الخطورة البالغة على الفرنجة ماله ، فإن الآثار الهائلة التي أحدثها تمزيق جيش شارلمان داخل مملكته ، وفي سائر الأمم التي حكمها شارلمان ، أو كانت له صلة بها ، ولا سيما القبائل السكسونية^(١) .. أنزلت شارلمان من عليائه ، وجعلت هيئته تنحدر سريعاً في نفوس القريب والبعيد ، الصديق والعدو .. وبخاصة في نفوس القبائل السكسونية ، فقامت بثورات أضعفت شارلمان .

* * *

★ أهمية الكمين على المدى البعيد :

١ - حريباً : مأساة وخسارة جارية شجّلت عند الأوربيين في انشودة رولان^(٢) : Chanson de Roland ، التي جانبت

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، صفحة ٨٢ بتصرف .

(٢) كتبت ملحمة في القرن الحادي عشر الميلادي باسم « انشودة رولاند » ، وهي من نوع الملاحم أو أغاني البطولة التي تدور حول الاعمال الكبيرة التي ارتبطت بشخصيات بارزة ، كتب هذه الملحمة الشاعر النورماني « تيرولد » . وبعد أن تصف الملحمة المجتمع والتفكير الفرنسي صورت كيف انتهت حياة رولاند . ولقد طغت عليها الصفة الأسطورية وتمجيد شارلمان (دون سند من الواقع التاريخي) . ومن أخطائها التاريخية قولها : ان شارلمان مكث في اسبانية سبع سنوات لاختضاعها ، وقولها : دانت لشارلمان جميع اسبانية ماعدا سرقسطة !!

الحقيقة كثيراً ، في معظم تفاصيلها وأحداثها • وهنا يظهر جلياً تزوير التاريخ ، فهزيمة شارلمان في ممر رونسقال بجبال البرانس هي الهزيمة الوحيدة في تاريخ شارلمان كما يدعون ، ولكنها أسبلت عليه من ساطع المجد ما لم تستطعه الانتصارات الكثيرة ، بفضل الخيال القصصي الذي أضفى على حملته الحربية في وادي نهر الإيبرو ، شمال مدينة برشلونة هالة من هالات الحروب الصليبية ، ونسجت حول اسم قائده رولان الذي خرب قتيلاً في كمين ممر رونسقال ، ما لا حصر له من أكاليل الشعر والأغاني مجداً وبطولة وتخليداً •

٢ - سياسياً : بُدِّد حلم شارلمان في ازالة السيادة الاسلامية عن إسبانية ، وتكوين امبراطورية على النسق الروماني ، تعيد ذكرى تلك الامبراطورية المترامية الأطراف •

٣ - معنوياً : انهارت سمعة شارلمان عند اعدائه السكسونيين ، وقويت روح المسلمين المعنوية ، فقام المسلمون بغارة سريعة بخاطفة على أكويتانيا عام ٧٨٥ م ، وسار صقر قریش نحو سرقسطة ، وقبل وصوله اليها كان سليمان بن يقطان الكلبي « ابن الأعرابي » ، قد قتل على يد الحسين بن يحيى الأنصاري الذي اعتقد أن سليمان متهم في دينه وولائه ، وأعلن الحسين خضوعه وطاعته وولاءه لصقر قریش (١) •

(١) ولما خرج عليه بعد ذلك ، انتهى امره بالقتل ، كما ورد في بعض الروايات ، راجع : المسلمون في أوربة ، •

ومع انتصار صقر قریش ورجحان كفته ، رأى ، كما رأى شارلمان ، أن من حسن السياسة ، إقامة العلاقات الودية ، بعد أن خبر كل منهما قوة خصمه وامكاناته ، فلم يسع شارلمان إلا أن يستجيب الى السلم مع صقر قریش^(١) ، وأن يبعد عن نفسه ذلك الحلم الامبراطوري في فتح اسبانية ، وتمت المعاهدة والمسالمة ، وبذلك يكون شارلمان بطل النصرانية وحاميها الأكبر في فرنسا ، وفيما وراء نهر الرين حيث القبائل السكسونية التي أرغمها على اعتناق النصرانية تباعاً ، لا بطلها في وجه اسبانية المسلمة وراعيها الأموي صقر قریش •

* * *

★ توفي صقر قریش سنة ١٧٢ هـ في شهر ربيع الأول ، تشرين الأول « أكتوبر » ٧٨٨ م ، فخلفه ابنه هشام « ١٧٢ — ١٨٠ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٦ م » ، الذي نجح خلال ولايته لماردة زمن أبيه ، في تقليص أظفار الامارات المسيحية في جليقية ، وليون ، وناقار ، إذ كان كثير الغزولها^(٢) •

وتصفه المراجع بأنه شاب كفء متحمس للدين ، وبمنزلة عمر بن عبد العزيز في سيرته أثناء حكمه في الأندلس ، فقد كان يبعث بقوم من ثقافته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ،

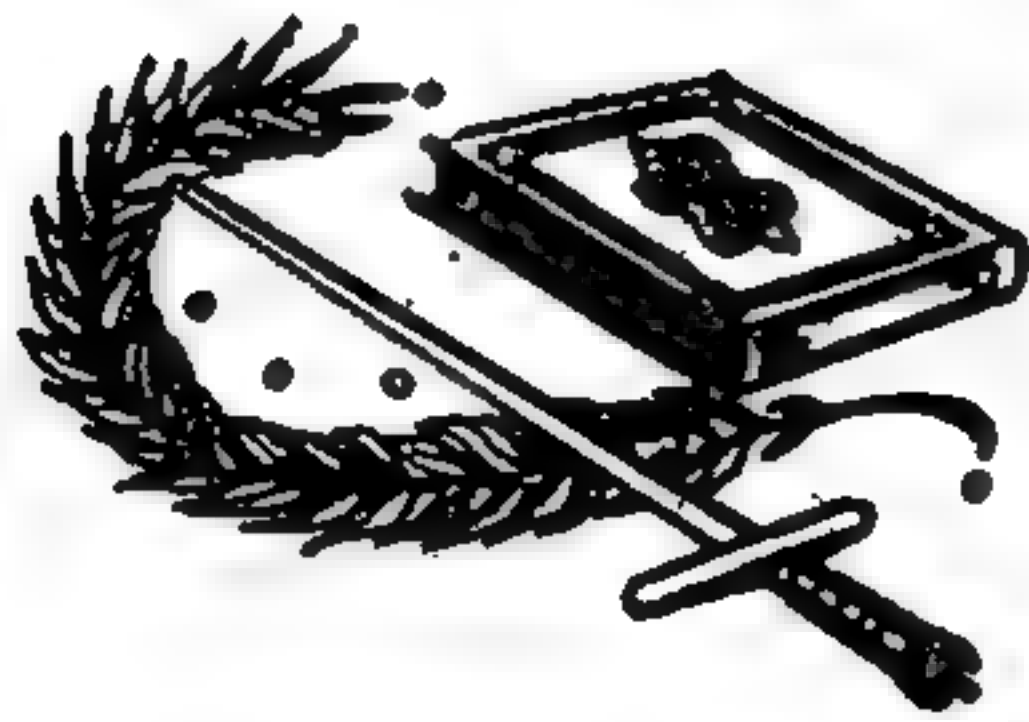
(١) في هذه الاثناء طلب صقر قریش ثعلبة بن عبيد من الفرنجة ، فاطلق سراحه ،

وعاد الى الاندلس • راجع الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ، ص : ٦٣ — ٦٤ •

(٢) نفع الطيب ، ج : ١ ، ص : ٣١٦ •

ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به
وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد • ولما وصفه زياد بن عبد
الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين موسماً
بمثل هذا •

لقد سار هشام بنفسه الى جليقية لمحاربة ثوارها ، فهزمهم
وشتت شملهم • وسير جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد
الواحد بن مغيث الى قطالونيا ، ودخل عبد الملك فرنسة عام
١٧٧ هـ / ٧٩٢ م ، ووصل الى أربونة ، وسار الى قرقشونة ،
فانبرى اليه وليام دوق طولوشة ، وعلى ضفاف نهر انبيو بين
قرقشونة وأربونة ، كانت المعركة حيث انتصر المسلمون ، وأصيب
الفرنجة بخسائر فادحة • وذكر صاحب « نفح الطيب » أن عبد
الملك بن عبد الواحد وصل الى الزاوية الشمالية الغربية من فرنسة
« أي الى أرض بريتانية » •





فَتِيح
جَزِيرَةِ الْمُتَوَسِّطِ

«البحر المتوسط بحيرة إسلامية»



جُزُرُ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ

★ قبرص ، رودس ، كريت ، مالطة ،
قوصرة ، سردينيا ، كورسيكا ، البليار ،
صقلية .

أ- قبرص :

كتب معاوية بن أبي سفيان — والي الشام — الى الخليفة
الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأذنه في غزو
البحر أكثر من مرة ، فأجابه عثمان الى ذلك ، وكتب اليه :
لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً
فاحمله وأعنه ، ففعل معاوية ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس
الفزاري (١) .

واتجه الأسطول الاسلامي عام ٢٨ للهجرة نحو قبرص ،
وهي الجزيرة الهامة لموقعها في البحر المتوسط ، فهي المحطة
البحرية الاستراتيجية للتجارة والملاحة . كما أن موقعها هام لحماية
فتوح المسلمين في بلاد الشام وافريقية .

(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٣ ، ص : ٤٨ .

اتجه الاسطول الاسلامي من سواحل بلاد الشام بقيادة
عبد الله بن قيس الى قبرص ، وسار اليها أيضا أسطول اسلامي
آخر من مصر بقيادة عبد الله بن سعد . فانتزعتها المسلمون عام ٢٨ هـ
من البيزنطيين وامبراطورهم يومئذ قنسطانس الثاني « ٦٤١ —
٦٦٨ م » .

وقد صالح أهل قبرص المسلمين على :

- ١ — ألا يقوموا بغزو المسلمين .
- ٢ — وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم .
- ٣ — مع جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة .
- ٤ — وأن يختار المسلمون بطريق قبرص^(١) .

قال جبير بن نفير : ولما فتحت قبرص ، وأخذ منها السبي ،
نظرت الى أبي الدرداء^(٢) يبكي ، فقلت : مايكيك في يوم أعز الله
فيه الاسلام وأهله ، وأذل الكفر وأهله ؟! قال : فضرب منكبي بيده
وقال : ثكلتك أمك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا
أمره ، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك ، إذ تركوا أمر
الله فصاروا الى ماترى ، فسلط عليهم السباء ، وإذا سلط السباء
على قوم فليس له فيهم حاجة .

(١) والهدف من هذا فصل الكنيسة القبرصية عن الكنيسة البيزنطية ، بتعيين
بطريك لا يكون معاديا للمسلمين مع عدم التدخل في الشؤون الكنسية . « راجع :
الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، نسام العسلي ، ص : ٢٩٢ ، .
(٢) واسمه عويمر .

وفي هذه الغزوة توفيت أمّ حرام^(١) بنت ملحان الأنصارية . .
تحقيقاً لنبوءة رسول الله ﷺ . وهي أنه : نام رسول الله ﷺ في
بيتها ، فاستيقظ وهو يضحك ، وقال : عرض علي ناس من أمتي
يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة ، قالت أم حرام :
يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال ﷺ : إنك منهم ، ثم
نام فاستيقظ وهو يضحك ، فقالت أم حرام : يا رسول الله ،
ما يضحكك ؟ فقال : عرض علي ناس من أمتي يركبون ظهر البحر
الأخضر كالملوك على الأسرة ، قالت : يا رسول الله ، ادع الله أن
يجعلني منهم ، قال ﷺ : أنت من الأولين .

وقد صحبتها زوجها عبادة بن الصامت في غزو قبرص ، فلما
جاز البحر بها ركب دابة فصرعتها فقتلتها^(٢) ، ودفنت هناك ،
وقبرها يزار حتى يومنا هذا .

نتائج فتح قبرص :

١ — تهديم جدار الوهم عند المسلمين بركوب البحر ،
وبدء الصراع بين المسلمين والروم فيه .

٢ — تأمين حدود بلاد الشام ومصر بجعل قبرص قاعدة
انذار متقدمة .

(١) أم حرام بنت ملحان . . الانصارية الخزرجية ، واسمها الرميضاء ، أو
الغميضاء ، وهي زوجة الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ، وكان رسول الله ﷺ
يكرّمها ويزورها في بيتها ، ويقيل عندها ، وأم حرام خالة أنس بن مالك .
« أسد الغابة » ، ج : ٧ ، ص : ٣١٧ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣١٨/٨ ، ومسند الامام احمد بن حنبل : ٤٢٣/٦ .

٣ - وجه الاسطول البيزنطي ثقله الى غرب البحر المتوسط ، حيث كانت الفتوحات الاسلامية لا تزال بعيدة عن الوصول الى هناك (١) .

« وتبقى الظاهرة الاكثر أهمية في نتائج معركة قبرص ، هي تطوير الاعمال البحرية بتنسيق تام مع الاعمال البرية ، وتظهر متابعة الاستيلاء على جزر البحر الابيض المتوسط (صقلية - كريت - الباليئار) أنها كانت متوافقة مع التحرك البري ، فكانت الجزر هي هامش الحيلة البحري للدفاع عن الأقاليم التي يفتحها المسلمون في المغرب الاسلامي (٢) » .

تكررت الغزوات على قبرص في الأعوام : ١٣٠ ، ١٥٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ هـ (٣) . وقيل البدء بالحركة الصليبية وجه ملك القسطنطينية « نقفور » أسطولا الى قبرص عام ٩٦٥ م ، فاحتلها فأصبحت سندا بالغ الأهمية للصليبيين . وبعد استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي اتجه ريتشارد قلب الاسد الى قبرص ، وجعلها قاعدة له عام : ١١٩١ م ، وفي عام : ١١٩٨ م أصبحت مملكة ، وأصبح ملكها موجّهاً للمغول للقضاء على المسلمين ، وأصبحت عام : ١٢٤٨ م قاعدة للملك لويس التاسع عند غزوة مصر .

(١) الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بسام العسلي ، صفحة : ٢٩٤ .

(٢) المرجع السابق : صفحة : ٢٩٦ .

(٣) وهي الأعوام : ٧٤٧ ، ٧٧٥ ، ٧٩٠ ، ٨٠٧ م .

وفي عام ١٢٦٣ وحد ملك قبرص « هيو » قبرص وعكا التي كانت ما تزال بيد الصليبيين ، فأصبح مسؤولاً عن حماية عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق •

وفي عام ١٢٩١ م حرر المسلمون عكا ، واضحت قبرص بعدها مركز تهديد للشواطيء الاسلامية • لذلك كان الملك الأشرف خليل — محرر عكا — ينادي دوما : قبرص •• قبرص •• قبرص • غير أن تهديدات المغول أعاقته عن تنفيذ أهدافه •

ولما أخذ العثمانيون على عاتقهم حماية العالم الاسلامي ، فتحوا قبرص عام ١٥٧٣ م ، ثم احتلها البريطانيون عام : ١٨٧٨ م • ثم أصبحت مستقلة عام : ١٩٤٥ م •

* * *

٢- رُودس :

قال البلاذري في « فتوح البلدان »^(١) : وكان معاوية بن أبي سفيان يغزي براً وبحراً ، فبعث جنادة بن أبي أمية الأزدي الى رودس (وجنادة أحد من روي عنه الحديث ، ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ، ومات في سنة ثمانين للهجرة) ففتحها عنوة ، وكانت غيضة في البحر ، وأمره معاوية فأنزلهما قوما من المسلمين ، وكان ذلك في سنة اثنتين وخمسين •

(١) فتوح البلدان ، ص : ٢٣٧ •

أقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذ لهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن والرجوع^(١) .

ولما كان مسلمة بن عبد الملك في طريقه الى القسطنطينية عام ٧١٧ م ، فتح رودس ثانية ، وبعد فشل حصار القسطنطينية افلتت الجزيرة من يد المسلمين .

وفي مطلع القرن التاسع الميلادي حاول الخليفة المسلم هارون الرشيد فتح رودس ، ولكنها بقيت تابعة لبيزنطة حتى استولى عليها فرسان الاستارية الصليبيون عام : ١٣٠٨ م . وخلال سيادة الفرسان الاستارية عليها جاءت محاولة للسلطين المماليك في مصر زمن السلطان جتق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) ، ولكنها لم تنجح . ومن ثم ظلت رودس خاضعة للاستارية حتى انتزعها العثمانيون عام ١٥٢٢ م .

* * *

٣- أقریطش "كریت" :

في عام ٥٥ هـ / ٦٧٣ م غزا جنادة بن أبي أمية أقریطش^(٢) « كريت » ، ففتح أجزاء منها ، وفي زمن الوليد بن عبد الملك

(١) كان معاوية يعاقب بين الناس فيها ، وكان فيها مجاهد مقيما يقرئ الناس القرآن الكريم ، وسار مجاهد مع جنادة بن أبي أمية سنة ٥٤ هـ وفتحها « أرواد » وأسكنها معاوية المسلمين ، وأرواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية ، غير أرواد الشام .
(٢) راجع لضبط الشكل « معجم البلدان » ج : ١ ، ص : ٢٣٦ ، « أقریطش » .

فتحت أجزاء أخرى ، وفي زمن هارون الرشيد تم فتح الجزء الأكبر منها بقيادة حميد بن معيوف الهمداني • ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي — المعروف بالأقريطشي — وافتتح منها حصنا واحدا ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئا بعد شيء حتى لم يعد فيها من الروم أحد •

فمن هو أبو حفص هذا ؟ وكيف وصل الى أقريطش ؟ وكيف تم له فتحها وحكمها ؟

جاء في تاريخ ابن خلدون (١) :

في زمن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل « ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٣ م » ، قامت ثورة في قرطبة سميت ثورة الربض ، وسببها انهماك الحكم في صدر حكمه في لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع مثل يحيى بن يحيى الليثي — الذي روى عن مالك موطأه — وطالوت الفقيه وغيرهما • • فثاروا به ، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة ، وذلك عام ١٩٠ هـ ، فقاتلهم الحكم بن هشام فغلبهم واقتربوا ، وهدم دورهم ، ولحقوا بفاس من أرض العدو « في المغرب » ، ولحق قسم منهم بالاسكندرية ، برئاسة أبي حفص عمر بن عيسى بن شعيب البلوطي (٢) • وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم الأقريطشي ، وبلغ عدد هؤلاء المهاجرين الى

(١) ابن خلدون ، العبر • ج : ٣ ، ص : ١٢٦

والكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ١١٩ و ١٧٢ •

(٢) نسبة الى أرض « البلوط » قرب قرطبة •

الاسكندرية خمسة عشر ألف رجل غير النساء والاطفال، فاستولوا على الاسكندرية ، حيث كانت مصر كلها مضطربة بسبب الفتنة بين الأمين والمأمون .

ولما استقر الأمر في بغداد للمأمون أرسل الى الاسكندرية عبد الله بن طاهر ، فحاصر أبا حفص والربضيين ، فاستسلموا لعبد الله شريطة رحيلهم الى أقریطش ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ، ولم يزل يفتح الحصون والبلاد ، حتى لم يبق فيها أحد من الروم .

ثم وفد على الجزيرة نفر آخر من الاندلسيين وانضموا الى اخوانهم ، ومن ثم أصبحت الجزيرة قاعدة للعمليات الحربية الاسلامية في بحر ايجة وشواطئه ، واستطاع أبو حفص أن يروع شواطئ بيزنطة ، وأشارت اليه المراجع البيزنطية باسم : « Apecapso » تحريفاً لاسم آخر له هو « أبو شابس » .

اتخذ المسلمون في كريت قاعدة لهم عند موضع بلد قديم على خليج لادا قرب رأس « فراكس » ، وحفرَ حوله خندق ، ثم عرف هذا الموضع كله « بالخندق » وفيه نشأت المدينة المعروفة باسم « كانديا » ، وهي تحريف لكلمة الخندق (١) .

وفي كريت أقام المسلمون دولة ، أو إمارة إسلامية أسسها أبو حفص عمر البلوطي ، ولما توفي سنة ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م ، خلفه ابنه شعيب من بعده ، ومن ثم حفيده عبد العزيز المعروف « بالغليظ » ، وتوفي هذا الأمير بالقسطنطينية ، وخضع ابنه اينماس للبيزنطيين [٣٤٩ - ٣٥٠ هـ / ٩٦٠ - ٩٦١ م] .

(١) المسلمون في حوض البحر المتوسط ، د. مؤنس ، ص : ١٣٧/١٣٨ .

بقي المسلمون في أقريطش قرناً وثلث القرن ، لم تنقطع خلالها الحرب بينهم وبين بيزنطة ، حتى وصلوا الى تراقيا وجزر السيكلاديز في بحر إيجه • واتخذوا قواعد لهم في جزره ، مثل جزيرة نيون قرب شبه جزيرة خالسيديس ، وتحكموا في كثير من الجزر مثل : ناكوس وباتموس وباروس وايجينا وساموس ، وذكر بعض المؤرخين أن أثينا ذاتها كانت قاعدة للمسلمين •

ولما كان مسلمو أقريطش « كريت » على تحالف وثيق مع مصر الاسلامية فقد هاجمت بيزنطة دمياط عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م ، زمن ولاية عنبسة بن اسحاق على مصر من قبل الخليفة المتوكل العباسي ، ونهبوها وسبوا أهلها وخربوها ، ثم عادوا مسرعين ، وتكررت غارة البيزنطيين عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م في ولاية يزيد بن عبد الله (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ - ٨٦٧ م)^(١) •

أما مدينة « الخندق » فقد ظلت مركز تهديد حقيقي للنفوذ البيزنطي في بحر إيجه ، خصوصاً بعد فشل اسطول الامبراطور ليو السادس في رد هجومات المسلمين على سالونيك • وفي زمن الامبراطور ميخائيل جهزت حملة بحرية كبيرة بقيادة أمير البحر « أوريفاس » ، جاست خلال جزر بحر إيجه وطاردت البحارة المسلمين ، غير أنها ارتدت أمام هجمات بحارة أقريطش المسلمين • وجهز الامبراطور تيوفيلوس حملة كبيرة أخرى فمزقها المسلمون بالقرب من تاموس •

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ٥٥/٥٤ •

لبث المسلمون في أقريطش « كريت » من عام ٨٢٥ م وحتى
٩٦١ م فارضين سيادتهم على جزر بحر ايجه وشمال المتوسط ،
حتى استعاد الجزيرة الامبراطور البيزنطي رومانوس الثاني سنة
٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .



٤- مآلطة «مقام موضوع المتوسط» :

تم الفتح الكامل لمآلطة^(١) عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م ، زمن
أبي عبد الله محمد الأغلبى ، وجاء فتحها مكملًا لحصار صقلية •
وتأكد بعد فتح صقلية ومآلطة سيطرة المسلمين التامة على المضائق،
مسيّنا شمال شرق صقلية والمضيق بين تونس وجنوب صقلية •
وكان مقام المسلمين بمآلطة أطول من مقامهم بجزيرة صقلية،
ولذلك فأننا نجد في اللغة المملطية أصول اللغة العربية ، وسعد
أهلها في ظل الحكم الاسلامي للتسامح واللين اللذين أظهرهما
الفاتحون المسلمون ، ولأن الضرائب التي فرضت عليهم كانت
معتدلة جدًا •

وخرجت مآلطة من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ م ، فقد

(١) مآلطة : أصل التسمية يونانية « ميليته » وتعني النحل ، وحول مآلطة عدة
جزر هي : غوزو Gozo ، وكومينو Comino ، وكومينوتو Cominotto
وفلفولا Filfolà ، وكلها خضعت للمسلمين ، راجع : غزوات العرب
لارسلان صفحة : ٢٨٤ ، والمسلمون في أوربة صفحة : ٦٧ وما بعدها •

استردها النورمانديون بعد استردادهم لصقلية غير أنه سمح
للمسلمين الإقامة فيها الى سنة ١٢٤٩ م ، وصارت فيما بين سنة
١٥٣٠ م وسنة ١٧٩٨ م مركزا لفرسان ماريوحنا الذين طردهم
العثمانيون من رودس سنة ١٥٢٣ م ، فانتقلوا الى مالطة ، وأنشأوا
أسطولا عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين . ولما كان يؤتى
بألوف من أسارى المسلمين الى مالطة ، فقد قصد العثمانيون
الاستيلاء عليها سنة ١٥٦٥ م ، ولكنهم لم يتمكنوا منها ، وحاولوا
ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع (١) .

واحتل نابليون الجزيرة سنة ١٧٩٨ م ، ثم احتلها الانكليز
عام ١٨٠٠ م ، وهي اليوم دولة مستقلة .



هـ - قوصرة :

ذكر ياقوت الحموي أنها فتحت أيام معاوية ، والأرجح أن
أول من غزاها هو عبد الملك بن قطن الفهري ، خلال ولاية
موسى بن نصير على افريقية ، وذلك عام : ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ، ثم
غزاها حبيب بن أبي عبيدة الفهري زمن ولاية عبيد الله بن الحجاب
لافريقية والمغرب ، وذلك حوالي عام ١١٨ هـ / ٧٣٦ م ، وكان

(١) تاريخ غزوات العرب لارسلان ، صفحة : ٢٨٦ ، وقد اعتمد الامير ارسلان
على مؤلف أحمد فارس الشدياق - الذي أقام أربعة عشر عاما في مالطة - وكتابه يحمل
اسم : « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » .

الفتح النهائي على يد عبد الرحمن بن حبيب الفهري حفيد عقبة بن نافع سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م .

واتخذ الأغالبة جزيرة قوصرة^(١) قاعدة لفتح صقلية ، وأقاموا بها مركزا للحمام الزاجل « حمام الرسائل » ، ونقلوا اليها بعض السكان النصارى من صقلية ، وعدداً من فلاحي تونس من عرب وأفارقة، فتمازجوا واقتبسوا العادات الاسلامية واللغة العربية^(٢) .
وقد امتدت السيادة الاسلامية على قوصرة حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .



٦- سردينية وكورسيكة :

أول غزو إسلامي لسردينية « أو سردانية » كان عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م أيام موسى بن نصير ، وتم الفتح الجزئي لهذه الجزيرة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٩ م زمن الخليفة الأموي عبد الرحمن بن الحكم ، واتخذ المسلمون من فتوحهم في سردينية نقطة انطلاق لمهاجمة ايطالية وجنوب فرنسة .

وفي عام ٣٣٣ هـ / ٩٣٥ م قامت غزوة من المهدية في شمال

(١) قوصرة Cossyra وتعني باليونانية السلة أو السفط ، وربما كانت مشتقة من الفينيقية القديمة قيصرة تصغير قصرة . وهي تقع في منتصف الطريق بين صقلية وساحل افريقية الشمالي ، فهي تبعد ٦٠ ميلا عن صقلية و ٤٠ ميلا عن افريقية .
(٢) المسلمون في أوربة ، ص : ٦٥ وما بعدها .

افريقية ، حيث ابحر أسطول اسلامي بقيادة يعقوب بن اسحاق ،
هاجم سردينية وجنوا ، وعاد محملا بالغنائم ، ولم يستقر المسلمون
في سردينية بسبب تفرق الكلمة بين أمويي الأندلس وأدارسة
المغرب ، وأغلبة تونس •

والفتح الحقيقي لسردينية — وهي التابعة لفرنجة فرنسة —
كان في ربيع الأول ٤٠٦ هـ / آب « أغسطس » ١٠١٥ م ، على
يد مجاهد العامري ، الذي كان يهدف الى الفتح والاستقرار ،
لا الغزو والغنائم فحسب •

واقترن الفتح الاسلامي لسردينية بفتح كورسيكة ، التي
فتحت عام ١٩١ هـ / ٨٠٦ م ، فأصبحت قاعدة للعمليات البحرية
لغزو الشواطئ الإيطالية •

أرسل شارلمان عام ٨٠٦ م قوات بحرية لطرد المسلمين من
كورسيكا ، ولكن قائد اسطوله هادومر — كونت جنوا — قتل ،
فأرسل اسطولا آخر بقيادة « برخارت » فأخرج موقف المسلمين
في الجزيرة (١) •

خضعت كورسيكة وسردينية لسيادة الفاطميين عام ١٠٠٣ هـ ،
ثم غزا مجاهد العامري سردينية عام ١٠١٥ م • غير أنه اضطر الى
الانسحاب منها سنة ١٠١٦ م ، بسبب الحلف بين جنوا وبيزا الذي
انهى الحكم الاسلامي للجزيرة •

(١) المرجع السابق ، ص : ٧٨ وما بعدها •

فلما وقع الصراع بين ييزا وجنوا حول السيادة على سردينية، عاد المسلمون فغزوها سنة ١٠٥٠ م ولكن احتلالهم لها كان مؤقتاً، فقد انسحب المسلمون عن كورسيكة وسردينية نهائياً عام ١٠٥٠ م.



٧- جزر البليار « ميورقة ، مينورقة ، يابسة » :

ارتبط تاريخ هذه الجزر بتاريخ وأحداث الأندلس لقربها من شواطئها ، فهي « الجزائر الشرقية » لوقوعها شرق الأندلس .

وأول من غزاها موسى بن نصير عندما أرسل ابنه عبد الله فغزا ميورقة ، وتكرر غزوها بعد ذلك ، ومنها أيام الحكم بن هشام الأموي الأندلسي سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، فاستعان أهلها بشارلمان، الذي نجح في إبعاد المسلمين عنها لفترة طويلة .

وفي زمن الحكم بن هشام قامت أيضاً حملة عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م باتجاه البليار ، فوقع أهلها عهداً مع المسلمين ، ثم نقضوه سنة ٢٣٤ هـ فأرسل عبد الرحمن الثاني بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) أسطولاً مكوناً من ثلاثمائة مركب^(١)، نجح في إخضاعهم ، وفي ذلك يقول ابن عذاري في بيان المغرب^(٢) : « وفي سنة ٢٣٤ هـ ، أمر الأمير بتوجيه العساكر الى أهل جزيرة

(١) المسلمون في اوربة ، صفحة : ٧٠ .

(٢) البيان المغرب ٠٠ ج : ٢ ، ص : ١٣٢ .

ميورقة لنكايتهم واذلالهم ومجاهدتهم لنقضهم العهد واضرارهم
بمن مر عليهم من مراكب المسلمين ، فغزتهم ثلاثمائة مركب ، فصنع
الله للمسلمين جميلا وأظفرهم بهم وفتحوا أكثر جزائرهم » •

وفي عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م أرسل الخليفة الاموي الاندلسي
عبد الله بن محمد^(١) أسطولا بقيادة عصام الخولاني ، وعينه حاكما
على جزر البليار ، ففتح ميورقة ومينورقة ، وبقيت يابسة بيد
حاكمها « جوينزا » ، وبقيت الجزر تحكم باسم بني أمية حتى
سقوط قرطبة عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م •

ولما قامت دول الطوائف في الأندلس ، استقل أبو الحسين
مجاهد بن عبد الله العامري^(٢) « بدانية » بشرق الأندلس ، فانطلق
منها بأسطول قوي عام ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ - ١٠١٥ م ، وفتح جزر
البليار الثلاث ، وأعلن استقلاله بها عام ٤٣١ هـ / ١٠٢٢ م ، وولى
عليها عبد الله ابن أخيه ، ثم خلفه الأغلب مولى مجاهد ، وفي
خلال حكم الأغلب مات مجاهد سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ ، فخلفه
ابنه علي الملقب بأقبال الدولة^(٣) الذي كان يقيم « بدانية » •

(١) (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٧ - ٩١٢ م) •

(٢) كان رقيقا في بلاط المنصور بن أبي عامر في قرطبة ، اشتهر مجاهد بالشجاعة
والمغامرة وسعة الثقافة في العلوم الدينية والادبية ، وبفضل مواهبه استقل بدانية وجعلها
قاعدة للفتح والغزو ، حتى صار أسطورة عجيبة في تاريخ العلاقات الاسلامية الإيطالية
بعد أن غدت دانية نقطة وثوب على جزر البليار وسردينية ، وكان ذكر اسمه يلقي
الرعب في قلوب الاوربيين النصارى ، ويعرف في كتب الاوربيين باسم : Mujet
او Musectus .

• راجع المسلمون في أوربة ، ص : ٧٤ : عن ابن خلدون ج : ٤ ، ص : ١٦٤ ،
الروض المعطار ص : ٧٦ ، أرسلان غزوات العرب ص : ٢٠٢ ، •

(٣) ابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ١٦٤ •

وكان الأغلب كثير الغزو في البحر ، فاستأذن علياً في ذلك فأذن له ، وقبل أن يغادر الأغلب البليار عين صهره سليمان بن مشكيان نائباً عنه ، فظل يحكمها خمس سنين حتى وفاته ، فولى علي مكانه مبشراً الملقب بناصر الدولة ، وخلال حكم مبشر على ميورقة سقطت دانية في يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة من ملوك الطوائف (١) .

وتعرض مبشر لأطماع كونت برشلونة الفرنجي الطاغية وهو « رامون برنجاريو الثالث » اذ تحالف هذا الكونت مع بيزا ، وهاجم البليار واستولى على جزيرة يابسة ، ثم حاصر ميورقة ، فاستنجد مبشر بعلي بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، فلم يستطع ابن تاشفين انجاده الا بعد سقوط ميورقة في يد صاحب برشلونة عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، وتوفي مبشر في ذلك العام .

غير أن المرابطين نجحوا في استخلاص الجزيرة من يد صاحب برشلونة وحكموها سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وظلوا بها حتى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م . ثم حكمها من بعدهم الموحدون من عام ٦١١ هـ الى ٦٢٧ هـ (١١٢٤ - ١٢٢٩ م) . وفي عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م فتح جاكومو الاول صاحب أرغونة ، هذه الجزر وأخرج منها المسلمين نهائياً (٢) .

★ ★ ★

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٨٦ .

(٢) المسلمون في أوربة ، ص : ١٩٧ . عن : صبح الاعشى ، ج : ٥ ، ص :

٢٥٦ - ٢٥٧ .

★ راجع صفحة ٨٩ حيث مصور جزر البليار .

فَتْحُ صِقْلِيَّةَ

ذكرت صقلية والهوى
يهيج للنفس تذكراها
فان كنت اخرجت من جنة
فاني احثت اخبارها
« ابن حمديس »

إن الموقع الاستراتيجي لجزيرة صِقْلِيَّةَ ، جعل منها أهم
جزر البحر المتوسط ، فهي صلة الوصل بين شمال افريقية من
ناحية ، وبين ايطالية من ناحية ثانية .

ولهذا الموقع الهام ، أثر عظيم كبير تجارياً وحضارياً ، فقد
سهل الاتصال بالشعوب ذوات الحضارة على شواطئ المتوسط
منذ القديم^(١) ، فلا عجب إذن إذا سُميت صِقْلِيَّةَ
« درة جزر البحر المتوسط » .

وفي عام ٣٦ هـ / ٦٥٦ م زمن الخليفة الراشدي الثالث
عثمان بن عفان، وعندما كان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام،
بدأ الغزو الاسلامي لجزيرة صِقْلِيَّةَ ، حين وجه ابن أبي سفيان

(١) راجع معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ٤١٦ .

وفتوح البلدان ، ص : ٢٣٧ ، طبعة عام : ١٩٥٩ .

معاوية بن حديج الكندي ، على رأس أسطول من مئتي سفينة ، انطلقت من شواطئ سورية ، وتابع عبد الله بن قيس الفزاري قيادة هذا الأسطول ، فوصل صِقْلِيَّةَ ، فغنم وعاد (١) .

واستمر الغزو الاسلامي لجزيرة صقلية ، وكان مسلمو افريقية — بحكم موقعها الجغرافي — هم الذين تولوا أمره ، وكان معظمهم من البربر ، لقلة العرب في شمال افريقية وقتئذ ، مع العلم أن البربر من أشد الشعوب التي اعتنقت الاسلام بأساً ، فغزاها :
— عباس بن أخيل من رجال موسى بن نصير .

— ومحمد بن يزيد الأنصاري (٢) والي افريقية (٩٧ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م) .

— وأيام أبي جعفر المنصور قام عبد الرحمن بن حبيب الفهري (٣) — والي افريقية — بغزوها عام (١٣٥ هـ / ٧٥٢ م) .

(١) أصاب عبد الله بن قيس أصناماً من ذهب وفضة مطلية بالجواهر ، ولما بعث بها الى معاوية بن أبي سفيان والي الشام حينئذ ، وجهها الى البصرة ، لتحمل الى الهند لتباع هناك بأسعار عالية ، وأخرج الخمس ، وكتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه بسلامة المسلمين من هذه الغزوة .

(٢) محمد بن يزيد القرشي بالولاء ، أمير افريقية ، أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام سنة ٩٧ هـ واليا عليها : وكانت الاندلس تابعة لها ، وعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ . (راجع النجوم الزاهرة ٢٣٥/١ و ٢٤٥ — والكامل في التاريخ ٣٨ و ٨/٥ — وابن خلدون ١٨٨/٤) .

(٣) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، أمير من الشجعان الدهاة ، كان مع أبيه بافريقية : ولما قتل أبوه سنة ١٢٢ هـ ، سار الى الاندلس وحاول اقتحامها فلم يفلح : فعاد الى تونس ، فبايعه أهلها سنة ١٢٦ هـ ، فسار بهم الى القيروان ، فملكها ، وغزا تلمسان وصقلية وسردينية : قتل غيلة في قصره بالقيروان سنة ١٢٧ هـ . « الاعلام ، ج : ٤ ، ص : ٧٣ » .

— وتكرر الغزو أيضا عام : (١٤٦ هـ / ٧٦٣ م) (١) •

وكان للأغالبة — حكام افريقية — النصيب الأكبر ، والجهد
الأهم ، في فتح صقلية ، واكمال فتحها •

فمن هؤلاء الأغالبة ؟

★ بدأ نفوذ بني رستم يزداد في المغرب الأوسط ، مما أقلق
العباسيين على سلطانهم في افريقية ، وبخاصة عندما بدأ يتزعزع
ويهتز ، بعد وفاة الوالي العباسي القدير يزيد بن حاتم المهلبى
سنة ١٧٠ هـ •

وفي وسط هذه الأحداث ، ظهر ابراهيم بن الأغلب (٢) ، الذي
استطاع أن يعيد للعباسيين سلطانهم على شمال افريقية • فطلب
اليه السكان أن يطلب من الخليفة العباسي هارون الرشيد الولاية
عليهم ، فكتب ابراهيم الى الرشيد في ذلك ، على أن يدفع اليه
مئة ألف دينار كانت تحمل من مصر الى افريقية كل عام ، وأن
يحمل هو من افريقية الى بغداد أربعين ألفا ، وبعد ان استشار
الرشيد أصحابه ، كتب اليه عهداً بولاية افريقية مدى الحياة ،
ووراثية في أولاده ، على أن يتولى الخليفة العباسي في بغداد
اعتماد الولاية واحداً بعد الآخر •

ضبط ابراهيم الولاية ، وسكنت البلاد ، وابتنى مدينة

(١) البيان المغرب ، ج : ١ ، ص : ٧٧ و ٦٥ •

(٢) ابراهيم بن الاغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سودة التميمي (١٤٠ -

١٩٦ هـ / ٧٥٧ - ٨١٢ م) •

« العباسية » قرب القيروان ، وانتقل إليها ، وسرعان ما ازدهرت
وظهرت فيها المباني الشاهقة ، وألوان من النشاط العلمي
والاقتصادي^(١) .

وتذكر المراجع ان ابراهيم كان على علم بالأدب والفقه كما
كان شاعراً وخطيباً شجاعاً . يقول ابن عذارى في بيان المغرب :
« لم يل إفريقية أحسن سيرة ، ولا أحسن سياسة ، ولا أرأف
برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه^(٢) » .

وهكذا . . أسس ابراهيم بن الأغلب إمارة الأغالبة ، التي
تعاقب عليها أحد عشر أميراً^(٣) من عام : ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وحتى :
٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م ، حين وصل الفاطميون الى السلطة .

لقد حقق الأغالبة نجاحاً رائعاً في الداخل والخارج ، ففي
الداخل كمل انتقال إفريقية الى المحيط الاسلامي ، واطرحت الى
الأبد بقايا الدين المسيحي ، كما تم انتشار اللغة العربية بها مكان
اللغة اللاتينية ، واللغات المحلية ، التي كانت منتشرة قبل الأغالبة .

« واستطاع الأغالبة أيضاً أن يقضوا على الفتن والقلاقل في
ربوع إفريقية ، وأن يعيدوا الى البلاد الأمن والاطمئنان ، وتم في عهد
الأغالبة امتزاج واسع بين العرب وبين السكان الأصليين بسبب
المصاهرة ونشر الثقافة العربية والاسلامية .

(١) مروج الذهب ، ج : ٢ ، ص : ٢١٨ ، وابن خلدون : ج : ٤ ، ص : ١٩٣ .

(٢) البيان المغرب ، ج : ١ ، ص : ٩٢ ، وراجع الاعلام ، ج : ١ ، ص : ٢٦ .

(٣) راجع جدول الاغالبة في نهاية الكتاب .

ومما ينسب الى الأغالبة أنهم أدخلوا الى الشمال الافريقي فنون العمارة التي كانت معروفة في دمشق وبغداد والقاهرة آنذاك وقد أنشأوا مدينة رقادة التي خلدها ابن هانئ في شعره فيما بعد ، كما شيدوا بالمدن التي كانت موجودة كتونس والقيروان وطرابلس كثيراً من المباني التي لا تزال آثارها باقية ، واهتم الأغالبة بالطرق والبريد والمواصلات ، وفي ظلهم ظهر كثير من العلماء والباحثين والفنانين •

أما في الخارج فقد ذاع صيت الأغالبة وأصبحوا مركز قوة هائلة بالشمال الافريقي والبحر المتوسط^(١) « يقول Stanley Lane Poole^(٢) » إن الأغالبة لم ينالوا فقط سلطانا وطيدا في البر ، بل شمل سلطانهم البحر الأبيض المتوسط أيضا ، فكانوا سادته والمسيطرين على الملاحة فيه ، وكانت لهم بحرية قوية ألقت الرعب في سواحل فرنسة وإيطاليا وكورسيكا • • •



قبيل فتح صقلية :

عقد ابراهيم الأغلبي^(٣) هدنة ومعاهدة مع حاكم صقلية الخاضع للامبراطورية البيزنطية ، وهو البطريق « قنسطنطين » ، مدتها عشر سنوات ، ولم يطل أمر المعاهدة هذه ، بسبب مخالفة

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، د. أحمد شلبي ، ط ١٩٧٥ ، ج : ٤ ، ص : ٢٨٠ •

(٢) المرجع السابق عن : Muh. Dynasties pp. 36/37

(٣) من : ١٨٤ - ١٩٧ هـ ، ٨٠٠ - ٨١٢ م •

ونقض البيزنطيين الصقليين لأهم بنودها ، ألا وهو رد الأسرى المسلمين الى ديارهم •

يقول الدكتور « مارتينو ماريو مورينو » في كتابه « المسلمون في صقلية » عن أسد بن الفرات : « وفنّد حجج المتسكين بحرمة العهود باتهامه الصقليين بعدم رد بعض الأسرى المسلمين خلافاً للشروط ، وإن كان سبب عدم ردهم أنهم كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي فلا يُعَدُّون ، إذاً ، من أهل الاسلام ، وبين لهم ضعف دفاع الجزيرة ، وختم كلامه بالآية القرآنية التي تقول — نردها هنا كما أوردتها مارتينو حرفياً — : فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون ، الله معكم ولن يتركم (١) » [محمد] ٣٧ • كان هذا القول فصل الخطاب ، فقر القرار على مهاجمة صقلية ، وطلب الشيخ — أي أسد بن الفرات — شرف التقليد بقيادة المجاهدين . خوفاً منه أن يكتفي غيره بكثرة الغنائم والسبايا ، فتبقى هذه الحرب عقيمة مثل الحروب السابقة ، فأجابه زيادة الله الى طلبه نزولاً على رغبة الجمهور (٢) » •

وقول « مارتينو » مرفوض قطعاً ، لأن كتب التاريخ لم تسجل تنصراً لأسير مسلم واحد في صقلية •

هذا •• وما عرف عن المسلمين تنصر " جصاعي مطلقاً . إلا كرهاً وإلا قسراً •• ومسيرة التاريخ خير شاهد !؟!

(١) الآية صحيحة : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون ، والله معكم

ولن يترككم أعمالكم » • (محمد : ٣٥) •

(٢) راجع المسلمون في صقلية ، ص : ٩٨ •

نقض البطريق قنسطنطين عهده مع الأغالبة ، فأرسل الأغالبة عام ١٩٧ هـ / ٨١٢ م أسطولا هاجم بعض الجزر التابعة لصقلية ، وأرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل الأول [٨١١ - ٨١٣] أسطولا بقيادة جريجوري ، انضمت إليه عمارة بحرية من المدن الايطالية الساحلية مثل : جايتا وأمالقي ، غير أن المسلمين استطاعوا أن يهزموا الأسطول البيزنطي وغنموا بعض سفنه قرب جزيرة « لندوشة » •

وعاود البيزنطيون الكرّة ، فأرسلوا أسطولا جديداً ، فانتصروا على الأسطول الاسلامي ، مما أدى الى تجديد الهدنة مرة أخرى ، ولكن أمدّها لم يطل ، فقد أرسل زيادة الله الأغلبى - ثالث حكام الأغالبة في افريقية^(١) - أسطولا لفتح صقلية بقيادة ابن عمه ، فلم يفلح في فتحها ، ولكنه استطاع أن يرد الأسرى المسلمين •

وفي سنة ٨٢٥ م ، قام في صقلية مغامر اسمه : «أوفيموس» Euphemios ، وتلقّبهُ المراجع العربية « فيمي »^(٢) ، وخرج على جريجوري حاكم صقلية البيزنطي ، (وفيمي هذا كان أمير

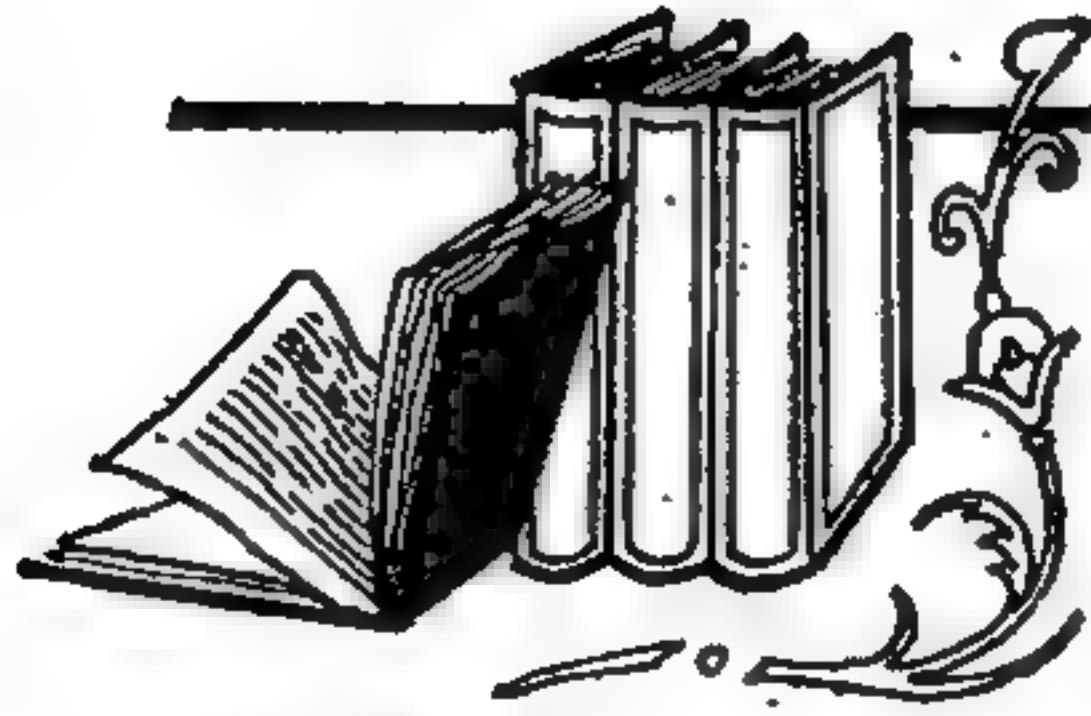
(١) ٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨١٧ - ٨٣٨ م •

(٢) تقول الروايات الاوروبية ان سبب لجوء فيمي : اما لان الوالي العام لصقلية قد خطف منه مخطوبته ، او لان فيمي هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ، فقضى الامبراطور ميخائيل الثاني بجذع أنفه عقابا له على جرمه ، ففر الى بلدة سرقوسة وثار في عصبته وانصاره على حاكم الجزيرة البيزنطي ، ووقعت في الجزيرة حرب أهلية لم يثبت فيها فيمي ، وأخرج من سرقوسة ، ففر الى افريقية واستغاث بأميرها • « راجع مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص : ٨٨ ، •

« وسرقوسة » هي « سيراكوزا » راجع المصور •

البحر في الأسطول البيزنطي المربط في صقلية ، علم أن الامبراطور
ميخائيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩ م) قد أمر بالقبض عليه وقتله •
فثار على حاكم صقلية وقتله ، ونصَّب نفسه حاكماً على صقلية عام
٨٢٥ م ، وفي عام ٨٢٦ م جاءت قوة بيزنطية بقيادة قنسطنطين للقضاء
على الثائر ، غير أن الثائر فيمي تمكن من القضاء على هذه القوة
وقتل قنسطنطين ، وجاءت قوة جديدة بقيادة أرميني ، الذي
سماه العرب « بلاظة »^(١) ، فانتصر ، وهرب فيمي الى افريقية ،
ولجأ الى المسلمين مستجيراً ، وفي القيروان طلب مساعدة
زيادة الله بن الأغلب •

أرسل زيادة الله بن الأغلب حملة بقيادة أسد بن الفرات لفتح
صقلية • فمن هو أسد بن الفرات ؟



(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ١٨٧ •

أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ

★ الفقيه المجاهد ، قاضي القيروان ،
تلميذ مالك بن أنس •

أبو عبد الله ، أسد بن الفرات بن سنان^(١) ، نشأ بتونس
وفيها قرأ وكتب ، وأخذ في حفظ القرآن الكريم ، واستكمل
دراسته فيها على يد علي بن زياد العبيسي ، وهو يقول في ذلك :
« إني لادعو الله لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت
العلم عليه » •

رحل الى الشرق في طلب الحديث سنة ١٧٢ هـ ، وفي الحجاز
قابل امام دار الهجرة مالك بن أنس ، الذي كان شيخاً شارف على
الثمانين ، تحيط به هالة من المجد العلمي ، فأمضى ابن الفرات
فترة من الزمن غير قصيرة يجلس الى مالك ويشهد حلقاته ، ويكتب
عنه ، ويتحدث اليه ، فيتشرب في خلال ذلك من روحه ومذهبه •

(١) قيل : ولد بخران ، أو بنجران ورحل أبوه الى القيروان في جيش محمد بن
الاشعث الخزاعي ، فأخذه معه وهو طفل فنشأ بها ، ثم بتونس ، أما في الإحاطة في
أخبار غرناطة (ص : ٤٣٠/٤٣١ ، ط ١٩٥٦) فجاء : أنه أندلسي من إقليم غرناطة •
ولد عام ١٤٢ هـ أو ٧٥٩ م : وتوفي عام ٢١٣ هـ أو ٨٢٨ م . (راجع الاعلام ، ج : ١ ،
ص : ٢٩٠ ، ومقال د . الحاجري في « العربي » العدد : ٥٤ ، صفحة : ٥٠ ، وكتابنا :
من ضيع القرآن ؟ صفحة : ١٦٦ وما بعدها) •

ما رآه ابن الفرات في الحجاز ، حفز تطلعه العلمي ، وأثار
رغبته في أن يمضي الى العراق ، قبل عودته الى افريقية ، وفي
العراق وجد في أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني من العناية
به والرعاية لشأنه ، والتفقد لحاجاته في عيشه ودرسه ، ماسد خطاه
ومضى به نحو غايته .

وهكذا . . . قدر لابن الفرات ، أن يدرس المذهبين الكبيرين
السائدتين في العالم الاسلامي إذ ذاك ، مذهب أهل الحديث في
المدينة المنورة ، ومذهب أهل الرأي في بغداد .

وفي طريق عودته الى القيروان ، قابل في مصر أئمة الفقه من
أصحاب مالك ، كعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن الحكم ، وعبد
الرحمن بن القاسم ، فعقد بهم صلة ، وكانت أكبر صلته مع
ابن القاسم ، الذي كان واسع العلم ، شديد الورع ، نافذ البصيرة ،
فأثار في نفس ابن الفرات ذكر مالك ، الذي توفي أثناء مقام
ابن الفرات في العراق ، فرأى في ابن القاسم صورة مالك ، جذبت
إليه ، حتى قال للناس في المسجد : « معاشر الناس ، إن كان مالك
ابن أنس قد مات ، فهذا مالك بن أنس » .

انتهجت هذه الصلة الوثيقة بين أسد بن الفرات واستاذ
ابن القاسم أثراً من الآثار الخالدة في تاريخ المذهب المالكي ، وهو
ذلك الكتاب الذي تلقاه عنه ، وحمله معه الى القيروان ، ونسب
إليه فسمي « الأسدية » .

اتخذ ابن الفرات القيروان مقراً له بعد عودته ، فأقبل الناس

يتلمسون حصيلة الرحلة العلمية الطويلة • فكان يجلس اليه اتباع مذهب مالك ، وأصحاب المذهب العراقي ، فيأخذ في عرض مذهب أبي حنيفة ، وشرح أقوال العراقيين ، فاذا فرغ منها صاح صائح من جانب المجلس : « أوقد المصباح الثاني يا أبا عبد الله » ، فيأخذ في ايراد مذهب مالك وشرح أقوال أهل المدينة ، فكان هذا نهجاً جديداً في دراسة الفقه المقارن ، اتسعت دراسته في القيروان •

عرف قدره ، وقدر ما يحمل في فكره ، وقدر تبخّره في الفقه ، علي بن حميد وزير الامير زيادة الله الأغلب ، فولاه زيادة الله بدافع من ابن حميد منصب القضاء ، الى جانب أبي محرز الكتاني ، وكان من الطبيعي أن تنشأ عن مشاركة الرجلين في القضاء ، خلافاً ومشادات ومخاصمة ، ولكنها كانت خصومة في الرأي ، لا تتجاوز حدودها ، فقد كان يعصمهما من ذلك دين يكف الرجلين ، ومروءة ترتفع بهما عن سفاسف الامور ، فلا يستحل أحدهما من صاحبه مآنهاه الله عنه •

وفي عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، وجد ابن الفرات في نفسه رغبة تسيطر عليه ، يتقرب بها الى الله ، لاعزاز دينه ، وجهاد أعدائه ، فرفض الأمير الأغلب ، ولكنه ألح في التماس تحقيق رغبته ، وكان يقول — وقد تجاوز السبعين من عمره — :

« وجدوني رخيصة فلم يقبلوني ، وقد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية ، فما أحوجها الى من يجريها لهم بالكتاب والسنة » •
إنه يريد أن الحرب ليست أمراً مادياً فحسب ، بل أمر روحي

أيضاً ، يشد العزائم ، ويشير النفوس ويشوقها الى الجهاد ، مما يسمى اليوم « التوجيه المعنوي » في الجيوش •

ويستجيب الأمير زيادة الله الأغلبى له ، ويولييه قيادة أسطول صقلية ، لكن ابن الفرات ما أراد الامارة ، لقد أراد الجهاد جندياً عادياً ، فقال لزيادة الله : « أصلح الله الأمير ! من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتولينني الامارة » • لقد رأى ابن الفرات النظر في حلال الله وحرامه فوق الامارة ، وأسمى منها ، وأعلى منها مرتبة ، فقال زيادة الله : « إني لم أعزلك عن القضاء ، بل وليتك الامارة ، وأبقيت لك اسم القضاء ، فأنت قاض أمير » •

وعند الوداع في ميناء « سوسة » وقف المشيعون من العلماء والوجوه ، ورجال الدولة ، وعامة الناس ، فكان مشهداً أثار نفس ابن الفرات ، فوقف في الناس وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالأقلام ، فاجهدوا أنفسكم ، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالوا به الدنيا والآخرة » •

وانطلق ابن الفرات بتسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية ، وكان معظمهم من الجند المجاهدين في سبيل الله •

* * *

مَسِيرُ الْحَمْلَةِ

✱ « لا حاجة لنا الى الانتصار
بالكفار » .

ابن الفرات .

وصلت الحملة بعد مسير خمسة أيام من « سوسة » الى صقلية ، ونزلت في مدينة « مازارا » في ١٧ حزيران « يونية » عام ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ . وانهزم « بلاطة » ومن معه من البيزنطيين أمام أسد بن الفرات ، وهرب الى مدينة « إنا » ، التي عرفت باسم مدينة قصر يانة^(١) (أو كسترو جوفاني فيما بعد) ، ومنها هرب الى « قلورية » في جنوبي ايطالية حيث قتل بعدها ، وفتح المسلمون عدة حصون من الجزيرة ووصلوا الى قلعة « الكرات » ، وقد اجتمع بها خلق كثير ، فخادعوا ابن الفرات في المراودة على الصلح وأداء الجزية ، حتى استعدوا للحصار ، ثم امتنعوا عليه فحاصروهم ، وبعث السرايا في كل ناحية ، واستمر في فتوحه ، وحاصر « سَرَقُوسَة » أو « سيراكوزا » ، وجاءت امدادات من افريقية ، وجاءت سرايا المجاهدين من الاندلس على أسطول أندلسي ، ورفض ابن الفرات الاستعانة بالروم البيزنطيين الذين اجتمعوا بقيادة

(١) معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ٤١٧ .

« فيمي » لمعاونته في القتال ، فأمر ابن الفرات فيمي وأصحابه ان يعتزلوهم وقال : « لا حاجة لنا الى الانتصار بالكفار^(١) » .

واستطاع ابن الفرات دحر حامية بالرمو (بَلَرَم) : عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ، وزحف البيزنطيون الى المسلمين وهم يحاصرون سرقوسة ، واشتد حصار المسلمين لسرقوسة براً وبحراً ، وأصيب عدد كبير من المسلمين ، وهلك عدد آخر ، واشتد القتال عندما بعث الامبراطور البيزنطي مددا لصقلية ، وجرح ابن الفرات وهو يبدي حسن التدبير ، وصدق الإيمان ، وقوة الارادة . . . ولكن أضر الجوع بالناس ، ومات ابن الفرات متأثرا بجراحه ، ودفن بمدينة « قصر يانة » .

خلف ابن الفرات في القيادة محمد بن أبي الجوارى ، وجاء أسطول بيزنطي بقيادة « ثيودوتس » ، الذي عينه الامبراطور^(٢) بطريقاً على الجزيرة ، ف تراجع المسلمون نحو الشمال ، ورفعوا الحصار عن بالرمو ، لكنهم فتحوا في طريقهم مدينة مينومناو ، وحصن مدينة جرجنت ، وحاصروا قصر يانة مرة أخرى^(٣) .

وفشل ثيودوتس في مهمته ، فقد هزمه المسلمون ، كما هزموا أسطولا بندقياً^(٤) جاء لمساعدة البيزنطيين .

(١) راجع المرجع السابق ، والكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ١٨٧ . وابن خلدون « العبر » ، ج : ٣ ، ص : ١٩٥ .

(٢) وهو الامبراطور البيزنطي ثيوفلس : (٨١٩ - ٨٤٣ م) .

(٣) كان فيمي خلال هذه الاحداث مع المسلمين ، غير ان مواطنا من قصر يانة قام

له وحياء باعتباره امبراطورا ، ثم اغتاله .

(٤) من مدينة « البندقية » ، فينيسيا حاليا .

ولما توفي محمد بن أبي الجوارى ولي بعده زهير بن عوف^(١) ، ضاق الأمر بالمسلمين الى أن وصل مدد من افريقية ، واسطول من الأندلس من ثلاثمائة مركب بقيادة « الأصبغ »^(٢) ، فانتصر المسلمون على ثيودوتس وقتلوه ، ومات « الأصبغ » بطاعون انتشر في ذلك الوقت .

نجحت القوات الاسلامية بقيادة ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب في فتح بالرمو « بلكرم » ، عاصمة الجزيرة عام ٢١٨ هـ / ٨٣١ م وساعدها على ذلك انشغال الامبراطور ثيوفلس بحروبه في شرق بلاده .

استسلمت بالرمو بشرط أن يترك قائد حاميتها وأسرتة ، وتم ذلك في شهر أيلول « سبتمبر » من عام ٨٣١ م ، وصارت بالرمو عاصمة المسلمين ، غير أن الخلافات التي وقعت بين المسلمين الأندلسيين ، والمسلمين الافريقيين ، قد أخرت اتمام فتح الجزيرة .

وفي عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م أرسل أبو عقاب الأغلب امداداً جديداً من افريقية ، ففتح حصن البلوط « أبلاطينو » ، وقرلون ، وسوترا ، مما اضطر الامبراطور ثيوفلس الى طلب المساعدة من الفرنجة ، وأمدته البنادقة بأسطول دمره الاسطول الاسلامي في

(١) ابن خلدون ، ج : ٣ ، ص : ١٩٥ .

(٢) في « تاريخ غزوات العرب » بحث عن مغازي العرب في أوربة وجزائر البحر المتوسط بقلم الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، ذكر فيه ان الاصبغ معروف باسم « فرغلوس » ، راجع صفحة : ٢٩٦ وما بعدها من المرجع المذكور .

مياه (تارانت) جنوبي ايطالية ، ويمكن القول إنه في عام ٨٤٠ م كان المسلمون قد فتحوا ثلث الجزيرة تقريباً^(١) .

وفي الفترة ما بين ٨٤٢ - ٨٤٥ م فتح المسلمون كالتا جيروني ومسينا ، وجاء في « الكامل في التاريخ » : « وفي سنة ٢٣٢ هـ حاصر الفضل بن جعفر مدينة مسيني « مسينا » فأخبر الفضل أن أهل مسيني كاتبوا البطريق الذي بصقلية لينصرهم ، فأجابهم وقال لهم : إن العلامة عند وصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني ، فإذا رأيتم ذلك ، ففي اليوم الرابع أصل اليكم ، فاجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة ، فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال ، ولما رأى أهل مسيني النار أخذوا في أمرهم ، وأعد الفضل ما ينبغي أن يستعد به ، وكمن الكمناء ، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا الى جهة الكمين ، فاذا خرج أهلها عليهم قابلوهم ، فاذا جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم ، وخرج الكمين من خلفهم ، ووضعوا فيهم السيف ، فلم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان عن أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة ، فأجابهم المسلمون الى ذلك ، وأمنوهم فسلموا المدينة ، وفيها أي في سنة ٢٣٢ هـ - أقام المسلمون بمدينة طارنت من أرض انكبردة وسكنوها »^(٢) .

وفي عام ٨٤٧ م ، فتح المسلمون ليوتيني ، وعام ٨٤٨ م فتحوا راجوزة بفضل شجاعة القائد المسلم الفضل بن جعفر .

(١) عن « المسلمون في أوربة » ، بتصرف : صفحة : ٦٢/٦٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ٢٦٨ .

ويعتبر العباس بن الفضل بن جعفر [٨٥١ - ٨٦١ م] الفاتح الحقيقي لجزيرة صقلية ، فقد خلف أباه في قيادة القوات الاسلامية بها ، كما خلف أبا عقال الأغلب في حكم الجزيرة بعد وفاته ، وذلك بانتخاب القادة المسلمين بالجزيرة له لكفايته ، وهذا استثناء وحيد في حكم صقلية ، إذ كان الأغلبة في افريقية يخشون استقلال أحد الحكام بصقلية ، مما جعلهم يحرصون على أن يكون الحاكم من أسرته . ووافق الأمير محمد الأغلب في افريقية على ما تم بصقلية بشأن العباس ، فأرسل العباس بن الفضل القوات الاسلامية الى مختلف جهات صقلية ، وكان يقود أغلبها بنفسه ، فاستأنف الهجوم على « إنا » عام ٨٥٢ م ، واتجه الى الساحل الشرقي عام ٨٥٣ م ، وغزا قطانيا ونوتو وراجوزة التي كان البيزنطيون قد استردوها من المسلمين ، وحاصر بويترا خمسة شهور حتى سلمت ، وفي عام ٨٥٦ م فتح خمسة حصون ، وهاجم عام ٨٥٧ م تورمينا وسرقوسة « سيراكوزا » ، وفي ٢٦ (يناير) ٨٥٩ م استسلمت مدينة قصر يانة وفتح قلعتها التي ظلت تقاوم ثلاثين سنة ، وابتنى فيها مسجدا (١) .

جاء في الكامل في التاريخ (٢) : « فتح قصر يانة عام ٢٤٤ هـ ، وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة ، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى

(١) المسلمون في اوربة ، بتصرف ، صفحة : ٦٣ .

(٢) صفحة ٢٩٠ ، « الكامل في التاريخ » ، راجع ابن خلدون « العبر » ، ج : ٣ ،

ص : ١٩٥ .

قصريانة لحصاتها • وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين الى مدينة قصريانة وسرقوسة ، وسير جيشاً في البحر فلقبهم أربعون شلندي^(١) للروم ، فاقتتلوا أشد قتال ، فانهزم الروم ، وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات مع رجالها ، وعاد العباس الى مدينته ، فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانة ، فغنموا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة ، فأمر العباس بقتله ، فقال : استبقني ولك عندي نصيحة ، قال : وما هي ؟ قال « الرجل » : أملكك قصريانة ، والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء ، وهذه الثلوج آمنون من قصدكم اليهم ، فهم غير محترسين ، ترسل معي طائفة من عسكريكم حتى أدخلكم المدينة ، فانتخب العباس ألفي فارس أنجاداً أبطالاً ، وسار الى أن قاربها ، وكمن هناك مستتراً ، وسير عمه رباحاً في شجعانهم ، فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح ، فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه ، فنصبوا السلاليم ، ودخلوا المدينة والحراس نيام ، وفتحوا الابواب • وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة ، وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال ، وبنى فيها في الحال مسجداً ، ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة ، ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم^(٢) بطريقاً من القسطنطينية في ثلاثمائة شلندي ، وعسكر كثير الى

(١) نوع من كبار السفن المسطحة ، وهي معدة للبضائع أصلاً • د. حسين مؤنس ، المسلمون في البحر الأبيض ، ص ١١٠ •

(٢) كان الامبراطور ميخائيل الثالث الملقب بالسكير (٨٤٢ - ٨٦٧) والوصي

عليه بدراس •

سرقوسة ، فخرج اليهم العباس من المدينة ، ولقي الروم ، وقاتلهم
فهزمهم ، فركبوا مراكبهم هارين ، وغنم المسلمون منهم مائة
شلندي^(١) .

وهكذا فشلت جهود «بدراس» الوصي على العرش البيزنطي
زمن الامبراطور ميخائيل الثالث «السكير» آخر سلالة الاسرة
العمورية ، فقد قضى العباس على الاسطول الضخم الذي أرسله
«بدراس» عند سرقوسة .

تلا سقوط قصر يانة ، سقوط سرقوسة في يد المسلمين في ٢١
آذار «مارس» ٨٧٨ م^(٢) ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وكان
سقوطها كارثة كبرى لبيزنطة وسياستها الحربية ؛ فقد انهارت
الجهود الجبارة التي بذلتها خلال سنوات طويلة لاعادة النفوذ
البيزنطي على ساحل البحر الادورياني .

وسقطت مدينة «تاورومنيوم» . في أول آب (اغسطس) ٩٠٢ م،
بفضل شجاعة ابراهيم الأغلبى ، وهذه المدينة هي آخر معقل
بيزنطي في صقلية ، وبسقوطها أضحت صقلية كلها خاضعة للسيادة
الاسلامية ، باستثناء بعض القرى الصغيرة ، قليلة الأهمية التي

(١) توفي العباس في ٣ جمادى الآخرة ٢٤٧ هـ ١٥ آب (اغسطس) ٨٦٢ م ،
ودفن في « غيران قرقنة » . ونبشه الروم وأحرقوا جثته ، كانت ولايته احدى عشرة
سنة ، داوم على الجهاد شتاء وصيفا . يقول ابن خلدون : وذل الروم بصقلية من
يومئذ ، أي من يوم ولايته « العبر ، ج : ٣ ، ص : ٢٠٢ » .

(٢) سقطت سرقوسة في ١٤ رمضان ٢٦٤ هـ على يد جعفر بن محمد بعد حصارها
برا وبحرا ، وهزم جعفر اسطولا روميا جاء لنجدتها وظفر بأربع قطع بحرية منه .
راجع : « الكامل ، ج : ٦ ، ص : ٦ » .

بقيت خاضعة لبيزنطة ، مثل : دنونا ، وروتا في شرقي الجزيرة ،
وحتى هذه الأخيرة سقطت في يد المسلمين عام ٩٦٥ م ودمر
المسلمون القوة البيزنطية التي وصلت بقيادة مانويل لمساعدتها .

ساد المسلمون جميع أنحاء الجزيرة تقريبا في مطلع القرن
العاشر الميلادي ، إلا أن الانقسامات التي وقعت بين القبائل العربية
المشاركة في الفتح من جهة ، وبين العرب والبربر من جهة ثانية ،
اضطرت ابراهيم الثاني الأغلبى الى القدوم بنفسه الى صقلية لتهدئة
الأحوال ، وتذعيم السيادة الاسلامية فيها ، ولكن موته الفجائي
عام ٢٤٧ هـ / ٩٥٦ م أدى الى بعث الانقسامات ، وإثارة الأحقاد
من جديد ، وكان ذلك مدعاة للضعف الاسلامي في صقلية ، وتلك
هي الآفة الكامنة الدائمة التي أفقدت السيادة الاسلامية صفة
الدوام والبقاء الى أجل أطول في بعض البلاد التي فتحوها . ومن
نتائج هذه المحنة اضطرار مسلمي صقلية الى قبول معاهدة مع
بيزنطة ، تنازلوا فيها عن مدينة « تاورومنيوم » فترة من الزمن ثم
استعادوها في عام ٩٦٥ م (١) .

حكم الفاطميون الجزيرة بعد الأغالبة منذ ٢٩٧ هـ ، وأبرمت
هدنة دائمة بين الجانبين الاسلامي والبيزنطي ، وممثل الجانب
الاسلامي وقتئذ كان « الخليفة » أبا تميم معد المعز لدين الله
الفاطمي (٢) ، وممثل البيزنطيين الامبراطور المعاصر نقفور (٣) .

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ٦٥ .

(٢) من : ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م ، الى : ٣٦٥ هـ / ٩٧٤ م .

(٣) من : ٩٦٣ م ، وحتى : ٩٦٩ م .

ثم حل في صقلية الولاة « الكليون » من سنة ٣٣٦ هـ ،
وحتى ٤٨٤ هـ ١٠٩٠ م^(١) ، حين اغتصب الجزيرة النورمانديون
القادمون من الشمال •



كانت حضارة المسلمين عند فتح صقلية في أوج عظمتها ،
فانسابت اليها خلال قرنين من الزمن ألوان الثقافة والمدنية من العالم
الاسلامي •

لقد قامت في جزيرة صقلية دولة اسلامية ، ازدهرت في ظلها
حضارة رائعة في الجزيرة ، وغدت حديقة يانعة تزدهو بعلومها
وتجارتها وصناعاتها ، حتى اذا أدرك المسلمين الوهن ، وحل بينهم
التفكك ، توالى حملات النورمان الفرنج على الجزيرة ، حتى
تمكن الدوق روجر أو « رجار » النورماني من استعادتها ، و انتهت
بذلك دولة الاسلام في صقلية كما ينتهي الحلم السعيد •

إن صقلية تعتبر بحق مركزاً هاماً من مراكز نقل الفكر
الاسلامي الى الغرب ، فقد كانت في العصور الوسطى مركز اشعاع
فكري لأوروبا جميعها • كما أدخل المسلمون اليها زراعات جديدة •

جاء في دائرة المعارف « لاروس^(٢) » : ان صقلية مدينة

(١) بدأ الاحتلال النورماني سنة ١٠٧٢ م ، واستمر حتى سنة ١٠٩٠ م •

(٢) المجلد : ١٤ ، ص : ٦٧٩ • راجع : « موسوعة التاريخ الاسلامي » ج :

٤ ، ص : ٢٨٣ •

للغرب بأسمى ما عرفته من تقدم زراعي ، فالقطن وقصب السكر
والفستق وغيرها ، لم تعرفه الجزيرة الا بعد دخول المسلمين إليها .

ومما هو جدير بالذكر أن الحضارة الاسلامية في صقلية
استمرت في الازدهار حينما من الدهر بعد احتلال النورماندين^(١)
لها ، فقد قدر النورمان تفوق المسلمين الحضاري ، فأثروا
الانتفاع بعلوم المسلمين ومعارفهم وصناعاتهم . ولذا فقد سمحوا
ببقاء جالية اسلامية في صقلية ، تعيش في ظل النورمان آمنة متمتعة
بشعائرها ونشاطها العلمي والصناعي ، ولا شك ان هذا التسامح
قد اقتبسه النورمان من المسلمين تقليدا .

كما دعا الدوق روجر « رجار » الثاني ابن فاتح الجزيرة
النورماندي ، رهطا من العلماء المسلمين من الصقليين المحليين ،
ومن افريقية والاندلس للعمل في بلاطه ، وكان في مقدمة هؤلاء
العلامة الجغرافي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الادريسي السبتي ،
الذي دعاه الدوق وأغدق عليه رعايته ، وعهد اليه بأن يعمل كرة
أرضية من الفضة الخالصة ، ترسم عليها الاقاليم المعروفة آنذاك ،
فقام العلامة المسلم بمهمته على أكمل وجه ، فكافأه الدوق عليها
أعظم مكافأة .

ثم عهد الدوق بعد ذلك الى الادريسي بوضع موسوعة

(١) النورمان : Normans اسيم محرف من لفظ الشماليين :
Northmen ، الذين استقروا منذ ٩١١ م بوادي السين ، واشتقت البلاد
التي استقروا بها اسم نورمانديا منهم ، راجع تاريخ أوربة في العصور الوسطى
فشر ، ج : ٢ ، ص : ١٢٧ .

جغرافية يصف فيها أحوال بلاد الارض وصورها وبحارها وجبالها
وخواصها ، ويذكر أحوال أهلها ، فوضع الادريسي موسوعته
الجغرافية الشهيرة ، التي خلدت اسمه ، وهي : « نزهة المشتاق في
اختراق الآفاق » ، التي انتهى من كتابتها في أوائل عام ١١٥٤ م
— قبيل وفاة الدوق بقليل — ويعتبر « نزهة المشتاق » أعظم مؤلف
جغرافي في العصور الوسطى (١) .

كما احتفظ روجر بنظام الادارة الاسلامي ، واستعان في
ادارة شؤون الدولة بالموظفين المسلمين ، بحيث كان بلاطه في
« بلرم » شرقياً أكثر منه غربياً ، وبقيت صقلية نحو قرن من
الزمن بعد هذا العهد وهي في وضع فذ نادر ، إذ كانت مملكة
نصرانية ، أسندت فيها بعض الوظائف العليا الى المسلمين .

ولذلك . . فلا غرابة اذا قلنا : ان النقود التي ضربها النورمان
سنة احتلالهم بالرمو « بلرم » ، كانت تحمل الشهادة الاسلامية
كاملة (٢) ، والآية الكريمة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ، [الصف :
٩] . وكانت التواريخ عند النورمان تعتمد على السنة الهجرية .

ولا غرابة أن نجد عشرات المفردات العربية على لسان أهل

(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » ، ص : ٩٠/٩١ . و (موسوعة
التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية) للدكتور أحمد شلبي ، ج : ٤ ، ص : ٢٨٣ .
(٢) ولعل هذا حكمة تاريخية من النورمان ، اذ كان يهمهم أن تقبل تقودهم في
الاسواق الافريقية المسلمة .

صقلية حتى يومنا هذا^(١) ، مثل :

Gaséna :	خزانة	Douane :	ديوان
Carara :	حرارة	Defetari :	دفتر « المعربة »
Filano :	فلان	Rahba :	الرحبة
Cassàra :	خسارة	Rubbo :	الربع « أي ربع القنطار »
Careri :	حريري	Secca :	السكة « في الايطالية »
Dica :	ضيقة	Ratolo :	الرطل « في الايطالية »
Sciàbbica :	شبكة	Cantara :	القنطار
Tarsia :	ترصيع	Pastecca :	البطيخ
Raddéna :	الردن	Naranzu :	النارنج
Gebbia :	الجابية « حيث يجبى الماء »	Noria :	الناعورة
Azzalora :	الزعرورة « نبات »	Galiggi :	الخليج « بمعنى الجدول »

وذكر ابن جبير في « رحلته » أن للمسلمين مساجدهم في مسينا ، والأسواق المختصة بهم في الأرباض كثيرة ، وسائر المسلمين بضاعها وجميع قراها^(٢) .

(١) راجع « شمس العرب تسطع على الغرب » لزيغريد هونكة ، و « المسلمون في صقلية » ص : ٣٨ و ٣٤ و ٢٠ .

(٢) « رحلة ابن جبير » نشر دار التراث - بيروت ، ص : ٢٦٦ .

ثم ذكر أن الملك غليام كان له شأن عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الاسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله ، فهم أهل دولته ، وعليهم يلوح روثق مملكته .

وكان يظهر زينته كملوك المسلمين تماما ، ومن عجيب أمره أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته — كما ذكر أحد المختصين بخدمه — : « الحمد لله حق حمده » ، وكانت علامة أييه ((الحمد لله شكراً لأنعمه (١))) .

ثم ذكر ابن جبير : « ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطَّرَّاز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك ، أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وهن على تكتن من ملكهن في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة ، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا المشرک ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به ، تسكيناً لهم .

وقال عن بلرم : « التي هي حضرة صقلية » ، للمسلمين بهذا المدينة رسم باق من الايمان يعمرن أكثر مساجدهم ، ويقىمون الصلاة بأذان مسموع ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم (٢) .

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٦٧ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٧٣ .

• ((وزي النصرانيات في هذه المدينة زي النساء المسلمات(١))) •

أخرج فريدريك الثاني المسلمين من صقلية عام ١٢٤٩ م ،
بعد أن فشل في إقامة تعاشر ثابت بينهم وبين المسيحيين ، ولكن
اقتباس أوربة من الحضارة والفكر الاسلاميين ، استمر زمنا أطول .
فلا غرو اذن ان يوجد كتاب بالعربية عنوانه « المسائل الصقلية » ،
وهي المسائل التي وجهها فريدريك الى السلاطين المسلمين والاجوبة
التي أعطاها عنها الصوفي المشهور عبد الحق بن سبعين ، في
مواضيع مثل :

١ - تفصيل نظرية ارسطوطاليس في قدم العالم •

٢ - العلم الالهي وما المقصود منه ، وما مقدماته الضرورية
ان كانت له مقدمات •

٣ - المقولات أي شيء هي ؟ وكيف يتصرف بها في أجناس
العلوم حتى يتم عددها (وعددها عشر) وهل يمكن ان تكون أقل
أو أكثر وما البرهان على ذلك ؟
٤ - حقيقة النفس •

٥ - أين خالف اسكندر الافروديسي^٢ ارسطوطاليس
الحكيم (٢) •

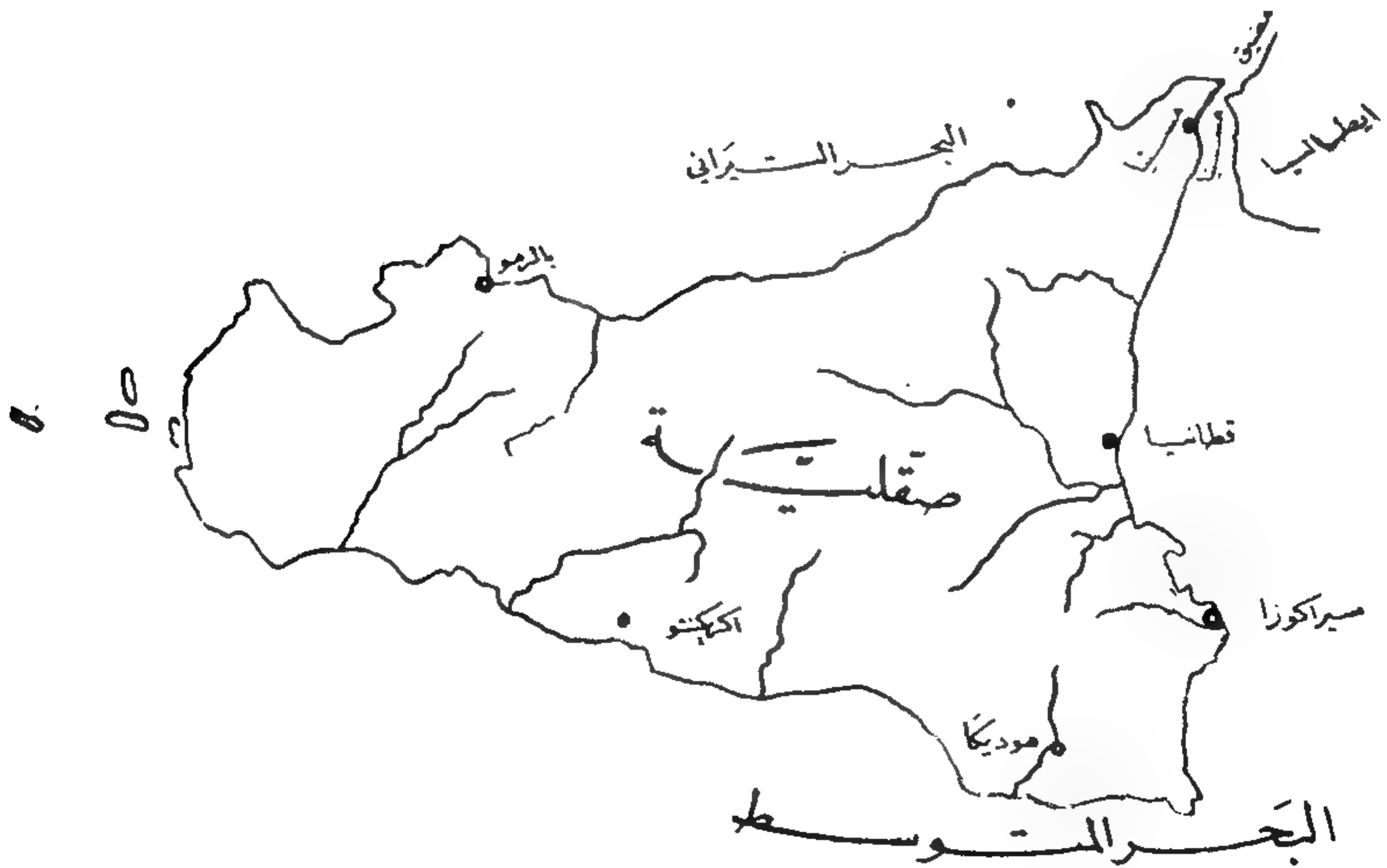
وهكذا كان لهذا الملك فضل كبير في نشر الثقافة الاسلامية
في أوربة ، فقد استيقن فريدريك أن العلوم والاداب تأبى التمييز

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٧٤ •

(٢) المسلمون في صقلية ، صفحة : ٢٦ •

بالمكان ، وترنو الى التلاقي والتعارف والتهادي في حرم لا تدوسه
رجل أي متعصب ، وبهذه الروح ساعد مدرسة سالرنو Salerno
الطبية المذيعة الناشرة للطب العربي ، كما أيد جامعة بولونية
Bologna مركز تدريس الفقه الروماني ، وأسس جامعة نابولي
Napoli منارة العلم جنوب ايطالية •

وهكذا نجد من نتائج الفتح الاسلامي لصقلية أن فرضت
الثقافة الاسلامية نفسها على النورماندين أولاً ، وعلى أوربة ثانياً ،
وان شعاعاً من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله الى أوربة خلال القرن
الثالث عشر الميلادي ، لا عن طريق اللاتين أو البيزنطيين •• بل
عن طريق المسلمين أصحاب الأندلس وصقلية الاسلاميتين •



مصور جزيرة صقلية

خاتمة

✽ لقد كان الأثر الحضاري في المناطق التي وصل اليها المسلمون أهم عوامل وعناصر اليقظة الاوربية الحديثة المعاصرة .

عرضنا أهم أخبار المسلمين في البحر المتوسط ، حين كانت غزواتهم فيه انهاكاً لقوى أعدائهم في القسطنطينية وفي أوربة ، كما ساعدت هذه الغزوات على افتداء أسرى المسلمين بطريق المبادلة بمن يأسرون من أعدائهم في غزواتهم ، فأدت هذه الغزوات خدمات جليلة للقوات النظامية الاسلامية وحكوماتها .

وسيادة المسلمين على حوض المتوسط دليل على بدء اضمحلال الدولة البيزنطية وضعف حكومة القسطنطينية التي رعت واهتمت بمظاهر الترف وتشيد القصور والمعابد الفخمة ، وفضلت ذلك على تحصين أطراف دولتها (١) .

ويلاحظ المؤرخ أيضاً أن ميول الشعوب التي حكمتها القسطنطينية ، كانت عاملاً هاماً في تسهيل فتوح المسلمين ، فقد بلغ عسف وجور حكومة القسطنطينية شأواً عظيماً ، حتى أن هذه

(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » ، ص : ٩٧ وما بعدها .

الشعوب لم تر في حكم المسلمين غضاظة ، بل رأَتْ في المسلمين
منقذاً لها في أغلب الاحيان ، ولنا دليل على ذلك في فتح صقلية ،
التي انضم قسم من أهلها الى المسلمين في محاربة البيزنطيين •

هذا وقد وصل المسلمون الى ثغور ايطاليا ، وحاصروا رومة
عاصمة النضرائية ، وجنوة ، والبندقية ، ففي عام ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م ،
في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب أمير أفريقية ، وفي ولاية
الفضل بن جعفر الهمداني على صقلية سارت حملة من صقلية
بسحاذاة الشاطئء الايطالي الغربي ، ورست عند مصب نهر
التبير ، حيث تقع رومة ، وفيها يومئذ البابا سرجيوس الثاني ،
وانقض البحارة المسلمون على رومة ، وضربوا الحصار على مدينة
القياصرة ، فارتاع البابا ، « واهتز الشعب الروماني فرقا ورعبا
وبادر الامبراطور لويس الثاني ملك الفرنج واللومبارد بارسال
حملة من جنده لمقاتلة المسلمين ، وجهزت ثغور نابولي وأمالفي
وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم ، وقدمت في ذلك الحين سفن مسلمة
أخرى لتشد أزر الحملة ، على أن الذي أنقذ المدينة الخالدة من
الوقوع في يد المسلمين هو خلاف الزعماء المسلمين أنفسهم ، فرفعوا
الحصار بعد أن قاتلوا جند الامبراطور وسفن الثغور الايطالية
قتالا رائعا ، غرقت فيه بعض سفنهم ، وعادوا الى الجنوب مثقلين
بالغنائم والاسرى سنة ٨٥٠ م (١) » •

وهذه الحملة جعلت ليون الرابع خلف سرجيوس يحصن

(١) مواقف حاسنة في تاريخ الاسلام ، ص : ١٠١ •

رومة ، ويدخل أحياءها في حمى الاسوار ، وأغلق مصب نهر التير بسلسلة ضخمة من الحديد تحول دون تقدم المهاجمين •

وفي عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، أيام محمد بن أحمد بن الأغلب أمير افريقية ، وفي أيام والي صقلية محمد بن خفاجة بن سفيان رست حملة اسلامية أخرى عند مصب نهر التير ، واستطاعت هذه الحملة أن ترد اسطولا ايطاليا سارع الى الدفاع عن رومة ، على الرغم من بعض الخسائر في سفن المسلمين ، بيد أن هذه الخسارة الجزئية لم ترد المسلمين عن حصارهم ، فلبثوا يهددون المدينة حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يفاوضهم على الجلاء ، على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة •

ووصل المسلمون سويسرا بعد أن جعلوا قلعة فراكسنيثيوم: Fraxinetum ، قاعدة انطلاق نحو الشمال والشرق ، سيطروا منها على أعالي الالب وعلى بيمونت وجنوة وساقوري ، وسهل البّو : Po ، وجالوا في جميع انحاء سويسرا ، حتى وصلوا دير سان غال : Saint — Gall قرب بحيرة كونستانس •

واعترف ملك ايطاليا « هيو » بسيادة المسلمين على منطقة الألب ، وبما انها واقعة بين فرنسة وايطاليا وسويسرا ، وفيها ممر سان برنارد فقد سيطر المسلمون بذلك على منطقة استراتيجية جداً ، من الناحية العسكرية ، والناحية التجارية والثقافية أيضا • وبعد أن سقطت قلعة فراكسنيثيوم الاسلامية بيد المتحمسين

للروح الصليبية حوالي عام ٩٧٥ م لم يعد للمسلمين تواجد في
سويسرا أو في مناطق الالب • فقد كانت قلعة فراكنشتيوم عاصمة
الممتلكات الاسلامية الاخيرة في فرنسة وشمالي ايطالية وسويسرا،
وكانت مشمولة برعاية الخليفة في قرطبة •

وليس من المصادفة مطلقاً أن تبدأ أوربة بنهضتها العلمية
ويقظتها الفكرية ، فقد ترك لهم المسلمون تراثاً حضارياً رائعاً • حيث
كان لهذا الأثر الحضاري في المناطق التي وصل إليها المسلمون أهم
عوامل وعناصر اليقظة الأوربية الحديثة المعاصرة •



مصور الجزائر الشرقية (جزر البليار)



الأغلبَة

- ١ - إبراهيم (الأول) جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ
 - ٢ - أبو العباس عبد الله (الأول) صفر سنة ١٩٧ هـ
 - ٣ - أبو محمد زيادة الله (الأول) ذو الحجة سنة ٢٠١ هـ
 - ٤ - أبو عقّال الأغلب ، السعدي ١٤ رجب سنة ٢٢٣ هـ
 - ٥ - أبو العباس محمد (الأول) ربيع الثاني سنة ٢٢٦ هـ
 - ٦ - أبو إبراهيم أحمد ٢ المحرم سنة ٢٤٢ هـ
 - ٧ - أبو محمد زيادة الله (الثاني) ١٣ ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ
 - ٨ - أبو عبد الله (أبو الغرائق) ٢٠ ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ
- محمد (الثاني)
- ٩ - أبو اسحق إبراهيم الثاني ٦ جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ
 - ١٠ - أبو العباس عبد الله شعبان سنة ٢٩٠ هـ
- (الثاني) محمد
- ١١ - أبو مضر زيادة الله (الثالث) رمضان سنة ٢٩٠ هـ
- ★ فرار زيادة الله الثالث من وجه الفاطميين :
- ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ

(★) عن معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي لزამباور ص ١٠٦ ، مطبعة جامعة فؤاد الاول : ١٩٥١ ، أخرجه : د. زكي محمد حسن ، وحسن احمد محمود .

الأغالبية ولاة صقلية

سنة

٢١٢ هـ

أسد بن الفرات « قاضي القيروان »

٢١٣ هـ

محمد بن أبي الجواري

٢١٤ هـ

زهير بن عون « فتح بلرم : ٢١٦ هـ »

٢١٧ هـ

أبو فخر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب

رمضان ٢٢٠ هـ

أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله

٢٣٦ هـ

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فرارة
« فتح قصر يانة : ٢٤٤ هـ »

٢٤٧ هـ

عبد الله بن العباس بن الفضل ، (خمسة أشهر فقط)

٢٤٧ هـ

خفاجة بن سفيان

رجب ٢٥٥ هـ

محمد بن خفاجة

رجب ٢٥٧ هـ

أحمد بن يعقوب

٢٥٨ هـ

جعفر بن محمد بن خفاجة

٢٦٤ هـ

الحسين بن رباح

٢٦٦ هـ

الحسن بن العباس

- محمد بن الفضلي
الحسين بن أحمد
سواده بن محمد بن خفاجة التميمي
محمد بن عمر بن عبد الله
أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب
محمد بن الفضلي « للمرة الثانية »
أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (الثاني) الأغلب ٢٠ رمضان ٢٨٧ هـ
أبو منصور زيادة الله
محمد السيراقوزي (السرقي) ١٩ جمادى الآخرة ٢٩٠ هـ



— ثم حل الولاة الفاطميون ، من ذي الحجة سنة ٢٩٧ هـ ،
وحتى سنة ٣٢٩ هـ ، وكان أولهم « الحسن بن أحمد بن أبي
خنزير » ، وآخرهم « عَطَّاف الأزدي » .

— ثم حل في صقلية الولاة الكليون ، من سنة ٣٣٦ هـ ،
وحتى ٤٨٤ هـ ، وكان أولهم « الحسن بن علي بن أبي الحسين
الكلبي » ، وآخرهم الحسن بن الصمصام بن يوسف .



المحتوى

٥	تصدير
١٥	★ كمين باب الشيزوي « معر دونسقال »
١٧	الفرجة قبيل باب الشيزوي
٢١	الغامرون
٢٥	امبانية المسلمة وشاملمان
٣٠	المعركة
٣٥	نتائج باب الشيزوي
٣٦	- أهمية الكمين على المدى البعيد
٤١	★ فتح جزر المتوسط
٤٣	١ - قبرص
٤٧	٢ - رودس
٤٨	٣ - اقريطش « كريت »
٥٢	٤ - مالطة و مفتاح حوض المتوسط ،
٥٣	٥ - قوصرة
٥٤	٦ - سردينية وكورسيكا
٥٦	٧ - جزر البليار
٥٩	٨ - فتح صقلية
٦٧	- أسد بن القرات
٧١	- سير الحملة
٨٦	خاتمة
٩١	الآغالية
٩٣	الآغالية ولاية صقلية

للمؤلف

- ١ - الإسلام في قصص الاهتمام (ترجم إلى الفارسية)
- ٢ - مَنْ ضَيَّعَ الْقُرْآنَ ؟
- ٣ - الإنسان بين العلم والدين
- ٤ - هارون الرشيد
- ٥ - غريزة .. أم تقدير إلهي ؟
- ٦ - آراء جمعها الإسلام
- ٧ - الإسلام وحركات التحرر العربية
- ٨ - عوائل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
- ٩ - الهجرة « حدث غير مجرى التاريخ »
- ١٠ - جرجي زيدان في الميزان

سلسلة «المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

- ١ - القاسية بقيادة سعد بن أبي وقاص
- ٢ - اليرموك بقيادة خالد بن الوليد
- ٣ - نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن المزني
- ٤ - ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
- ٥ - فتح الأنبلس بقيادة طارق بن زياد
- ٦ - بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي
- ٧ - فتح صفوية بقيادة أسد بن الفرات
- ٨ - الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين
- ٩ - الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحدي
- ١٠ - العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي
- ١١ - مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

غزوات الرسول الأعظم

- بدر الكبرى : رمضان ٢ هـ - كانون الثاني ٦٢٤ م
 غزوة أحد : شوال ٣ هـ - كانون الثاني ٦٢٥ م
 غزوة الخندق : شوال ٥ هـ - شباط ٦٢٧ م
 صلح الحديبية : ذي القعدة ٦ هـ - شباط ٦٢٨ م
 غزوة خيبر : المحرم ٧ هـ - آب ٦٢٨ م
 غزوة مؤتة : جمادى الأولى ٨ هـ - إيلول ٦٢٩ م
 فتح مكة : رمضان ٨ هـ - كانون الثاني ٦٣٠ م
 حنين والطائف : شوال ٨ هـ - شباط ٦٣٠ م
 غزوة تبوك : رجب ٩ هـ - تشرين الأول ٦٣٠ م
 «حروب الردة» : «في خلافة الصديق سنة ١١ هـ»